

سلوكنا الاجتماعي
وبنية العائلة في المجتمع العربي
الاتكالية، العجز، التهرب
الوعي والتغيير
الانسان العربي والتحدي الحضاري
المثقف العربي والمستقبل

اشارة

نشرت هذه المقدمات سنة ١٩٧٤ في مجلة «مواقف» (بيروت العدد ٢٩، خريف، ١٩٧٤) ومجلة «المعرفة» (دمشق، العدد ١٤٨، حزيران، ١٩٧٤) ومجلة «الثقافة العربية» (ليبيا، العـدد ٤١، ١٩٧٤). و «ملحق النهار» (تاريخ ١٣/١٠/٢/٧٤) وجريدة النهار، (تاريخ ٦/٧/٧٤، ٣٠/٨/٧٤، ٦/٩/٧٤، ١٣/٩/٧٤).

للمؤلف

المقاومة الفلسطينية في وجه اميركا واسرائيل (بيروت، ١٩٧٠)
الفدائيون الفلسطينيون: صدقهم وفاعليتهم (بيروت، ١٩٧٠)
المثقفون العرب والغرب (بيروت، ١٩٧١).

A Handbook of the Contemporary Middle East (Washington, 1957)

Governments and Politics of the Middle East in the Twentieth Century (Princeton, N.J., 1962, 1963, 1968)

Nationalism and Revolution in the Arab World (Princeton. 1966)

The Lethal Dilemma: Palestine and Israel (New York, 1969)

Palestine Guerrillas: Their Credibility and Effectiveness (Washington, 1970, 1971)

Arab Intellectuals and the West(Baltimore1970).

للدار المتحدة للنشر
هاتف: ٣٩٨٠٥٠ ـ ٣٦٨٠٥١
٩٢ شارع البطركية
ص.ب ١١/٩٠٥٩ بيروت ـ لبنان

هشام شرابي

مُقدّمات لدراسة المجتمع العربي

الطبعة الثالثة
١٩٨٤

الدار المتحدة للنشر

المحتويات

تتناول هذه المقدمات الخمس مجتمعنا وشخصيتنا الاجتماعية بتحليل نقدي قد يبدو احيانا عنيفا. ومن يسلك هذا السبيل في الكتابة عليه ان يوضح الاسباب التي دفعته الى ذلك. وفيما يلي سأحاول ان افعل هذا، وان كان هذا امرا على جانب كبير من الصعوبة لانه شخصي وخاص.

ـ١ـ

تنبثق هذه المقدمات من محاضرات القيتها في جامعة جورجتاون في العام الدراسي ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤. وكان معظم الحضور من طلبة الماجيستير والدكتوراه، شبانا وشابات نصفهم تقريبا من الاميركيين، والباقون عرب ـ بينهم اللبناني والسوري والسعودي والكويتي وفتاة جزائرية واحدة. وكان موضوع المحاضرات « التغير الحضاري في المجتمع العربي ».

كان هذا العام الدراسي موفقا غاية التوفيق، ولعله الاكثر امتاعا بين عشرين عاما من التدريس الجامعي. لن انسى الساعات التي امضيناها سويا، طلابي وانا، في البحث والمناقشة، فقد اوضحت في ذهني العديد من القضايا النظرية وزادت من تفهمي لمشكلاتنا الاجتماعية والنفسية. واود ان اسجل هنا شكري وتقديري للطلاب الذين اشتركوا في هذه المناقشات، واخص بالذكر منهم ادمون غريب

وعلاء الدين حريب ونائلة السويل وهايدي فيلبس ومنيرة زركين وهم جميعا اصدقائي، لما قدموه من اقتراحات وملاحظات نقدية صائبة. ولعلي لا ابالغ اذا قلت انه لولا مشاركتهم الفعالة لما كان بامكاني نشر هذه المقدمات بالشكل الذي تنشر به لتصل الى جمهور واسع من القراء في مجتمعنا العربي.

كان لهذه المقدمات التي نشرت تباعاً في عام ١٩٧٤، صدى بعيد في اوساط عديدة في العالم العربي. وكنت اتخوف قبل نشرها من ردة فعل سلبية قد تنشأ عن طبيعة المشكلات التي ركزت عليها والاسلوب المباشر الصريح الذي اتبعته في تحليلي. ويسعدني ان اقول ان مجمل التعليقات التي وصلتني كانت ايجابية وبناءة.

اصبحت ادرك، بفضل هذه التجربة، ان القارئ العربي قادر على استيعاب الفكر وقبول النقد مهما كان عنيفا، اذا شعر انه ينبثق من موقف صادق يرفض التمويه ويهدف الى كشفه الواقع على حقيقته. والقارئ « العادي » (لا « المثقف » فقط) هو الذي يستطيع ان يحدد الاتجاه الذي يتوجب على التغيير الاجتماعي ان يتجه فيه. اني اضع نفسي بين يدي القارئ العادي، له اكتب ومنه اتقبل الحكم الاخير.

القيت محاضراتي باللغة الانكليزية، وكنت حتى سنتين خلتا لا اكتب الا بالانكليزية ولا استطيع التفكير الا بها. واذا صدف ان كتبت مقالا في العربية كنت اهرع الى اصدقائي المتمكنين من العربية طالبا اليهم تصحيح لغتي واسلوبي. وكان هذا يحز في نفسي. اذ اني في صغري كنت شديد التعلق باللغة العربية وكانت مقدرتي الانشائية جيدة، كما يشهد استاذي وصديقي موسى سليمان الذي علمني كل ما

اعرف من الصرف والنحو، وكان يمنحني اعلى العلامات في الانشاء.

منذ مدة اخذت على نفسي ان لا انشر كتابا الا باللغة العربية، وما ازال على هذا العهد (لعلني اوفق). ومنذ ذلك الوقت وانا اطالع الكتب العربية وادرس اللغة من جديد. وقد تحسنت ملكتي اللغوية وصار بامكاني الكتابة بكثير من السهولة، وان كنت ما ازال ارتكب اخطاء نحوية، فأنا ما ازال في أول الطريق، واعتذر للقارئ اذا ما وجد في اسلوبي شيئا من الجفاف، وضآلة في اللون والنغم. ان القدرة على التعبير الصحيح اصعب بكثير من مجرد امتلاك شكل اللغة. والمشكلة في آخر الأمر ليست مجرد مقدرة ذاتية على امتلاك اللغة بل المشكلة في اللغة نفسها وفي العقل الفاعل فيها. ولا يقرر قوة التعبير في أية لغة الا الفكر الذي تصوغه فيصوغها.

كانت مناقشاتي مع الطلبة تجري في جو من المرح مليء بروح النكتة والثقة والتبادل الفكري الحر. لكن في الفصحى يختفي المرح ويأخذ الجو طابعا جديا فيه الكثير من الاصطناع. ولعل السبب في ذلك يعود الى صعوبة النكتة بالفصحى. وفي حين تعكس هذه المقالات مجمل النقاط الواردة في المحاضرات والمناقشات فانها لا تنقل جو المرح الذي ساده والمناقشات التي تلتها. واسفي هنا شديد، فالجدية الكثيفة تبعث على الكآبة وتعرقل عملية الفهم. وارجو من القارئ ان يحاول تخيل الجو الذي طرحت فيه هذه الافكار ونوقشت، وان يعيد صياغة تعابيرها الجافة احيانا باسلوبه الخاص، وان لا يقف عند حدود الكلمة بل يتعداها الى المعاني التي ترمز اليها.

ـ ٢ ـ

لا يستطيع الانسان ان يعيش بلا « حقيقة ». ولكل انسان

« حقيقته » يضم حياته حولها فتحدد اهدافها وتعطيها دلالة ومضمونا.

كانت حقيقة حياتي هي ذاتها الحقيقة التي هيمنت على حياة الفلسطينيين المثقفين من الطبقة « المحظوظة » الذين تدبروا امورهم بعد النكبة، ووجدوا لانفسهم مكانا في عالم التجارة او العلم، فاستطاعوا ان يوفروا لانفسهم عيشا مريحا و « مستقبلا » مأمونا. عملت استاذاً في احدى كبريات الجامعات الاميركية وكاتبا في الانكليزية اصاب نصيبا من النجاح لا بأس به. وكانت حياتي الخاصة سعيدة، فلم اكن اشعر بان الدهر قسا علي. بل بدا لي العالم على العكس، جميلا من خلال عيشي الهادئ المطمئن ومن خلال عملي الجامعي وكتاباتي وصداقاتي العديدة، وخيل الي ان الانسان يستطيع ان يحقق آماله وان يعيش سعيدا.

كان كامو يصنع، في تلك الايام المشمسة، حقيقة حياتنا الفكرية. كنت اجيء، في الصيف، الى بيروت واجتمع باصحابي وامضي معهم اياما ممتعة. وكنت اجلس طويلا، وبخاصة مع ادونيس، نتحدث عن الموت والحياة والشمس والبحر، ونسترسل كأن هذه كلها كانت ملكا لنا. وكنا نشعر بأن الحياة عزيزة وبأننا اسعد من الآخرين لادراكنا ان الحياة قصيرة والشباب زائل والجمال لا يبقى.

ولانني في ذلك الحين احببت شيئين فوق كل شيء آخر، الكتب واصدقائي، فقد بدت لي حياتي مليئة وحافلة بالاحداث. ولم اكن ادري ان الكتب قد تصبح وسيلة للهرب والاختباء، وان الصداقات تنفصم ولا يبقى منها الا الطعم المر.

ـ ٣ ـ

يقال، عندما يدخل المرء في الاربعينات ينسى حماقات الشباب ويصبح محافظا، متشددا. بلغت الاربعين، ولكن، بدلا من ان اصبح محافظا اصبحت ثوريا بتفكيري. فقد كانت سنة ١٩٦٧ بالنسبة إلي بداية مرحلة جديدة من حياتي اخذت فيها باعادة النظر جذريا بمواقفي الفكرية والسياسية السابقة جميعا. وكان ذلك نتيجة لالتقاء سنواتي الاربعين بصدمة الخامس من حزيران.

اخر ايار ١٩٦٧ : انا في « ناكز هيد » على شاطئ كارولينا الشمالية في عطلة اسبوع كامل تنتهي يوم الاثنين ـ في ٥ حزيران. زوجتي تناديني : « اخبار هامة. تعال اسمع الراديو. » اركب موجة مزبدة توصلني الى الشاطئ الرملي. ونبدأ بسماع الاخبار : الحشود المصرية في سيناء. اغلاق مضيق تيران. الحرب على الابواب. عبد الناصر يقول : « لا نريد الحرب، نريد استرجاع حقوقنا. »

فجأة يبدأ الستار بالارتفاع. الماضي يفتح ابوابه امامي. لم افكر يوما، طوال هذه السنوات، بمسقط رأسي يافا التي رأيتها، للمرة الاخيرة، من نافذة الطائرة التي اقلتنا،فايز صايغ وانا، بعد اقلاعها من اللد في يوم ماطر من كانون الاول سنة ١٩٤٧، في طريقها الى اميركا.

وجوه لم ارها منذ الهجرة تظهر امامي، كأنها لم تغب عني لحظة ـ وجوه رفقاء الصبا ـ ياسر، صفوح، عمر، وليد، خالد. واسمع،من بعد،الأصوات المرحة تتعالى من جانب شاطئ «الجبلية» (اتذكر الاسم الآن)، حيث ركبت اول حسكة وأكلت اطيب صحن فول في المقهى الصغير، قرب المسبح. وارى شارع النزهة وشارع جمال

باشا باشجاره العالية، وادخل سينما الحمراء ـ ملعب احلامنا حيث كنا نشاهد الفيلم الواحد ثلاث مرات واربعا وخمسا، في الاسبوع.

خيط الماضي، الذي حسبت انه انقطع ـ يعيدني الى طفولتي، الى اهلي وبلدي ـ يعيدني الى فلسطين.

العودة. اشعر من جديد، بغربتي القاتلة. وعلى شاطىء الاطلنطي اجابه اغترابي المزدوج. في تلك اللحظة ادرك ان الهرب مستحيل.

مساء الاحد ٤ حزيران. في طريقنا الى واشنطن نستمع الى نشرة الاخبار الساعة تلو الساعة. وقبل ان نأوي الى فراشنا نشاهد على التلفزيون مقابلة عبد الناصر مع نائب بريطاني: « لا نريد الحرب، بل نريد استرجاع حقوقنا ».

صباح الاثنين ٥ حزيران، توقظني زوجتي قائلة: «تلفنت السيدة فخري تقول ان القتال ابتدأ.» اشعر بارتياح شديد، يساوره شيء من القلق. ادير الراديو وقلبي يدق بعنف.

مساء الاثنين ٥ حزيران. معالم الكارثة اصبحت واضحة لا شك فيها. ويبدأ احتفال الاميركيين بانتصار اسرائيل. وندخل في ايام الذل والانهيار.

ـ٤ـ

عندما نفيق من ذهولنا، ندرك ان الكوارث تؤدي احيانا الى اليأس واحيانا الى ترسيخ ارادة الصراع. كان هذا اول درس اتعلمه من الجدلية التاريخية.

شدة الصدمة قوت فينا الوعي وأخذت تعمقه يوما بعد يوم. من هنا كانت ثورية انكسار سنة ١٩٦٧. ان نستسلم لليأس امر كان يساوي الاستسلام للعدو، يساوي العودة الى حالة ما قبل الوعي. من هنا انبثقت القوة التي دفعت بقطاعات واسعة من البرجوازية المثقفة التي كنت انتمي اليها نحو الوعي الثوري (الذي لم يختمر فيما بعد في اغلبية هذه القطاعات لاسباب موضوعية وذاتية).

بعد حزيران مرت الايام حزينة مرة. لكن الامور اخذت تتغير وتأخذ طابعا متزايد الوضوح. بالنسبة الي، شعرت كأني كنت في غرفة مظلمة ثم رويدا رويدا بدأت الظلمة تنقشع. اخذني الوعي الجديد بشكل مفاجئ وفيما بعد، اخذ يتعمق، بالقراءة، بالتجربة، بالتفكير.

في جامعة جورجتاون كنت احاضر في تطور النظريات السياسية والاجتماعية الاوروبية ابتداء من هيجل وانتهاء بسارتر، وكان عنوان المادة « تاريخ الفكر الاوروبي في القرنين التاسع عشر والعشرين. » وبالطبع كانت الماركسية تحتل جزءا كبيرا من هذه المحاضرات بصفتها خليفة الفكر الهيجلي وملتقى تيارات الفكر الاقتصادي الانكليزي، من جهة، والفكر الاشتراكي الفرنسي من جهة اخرى. ولاقت هذه المحاضرات التي كنت قد ابتدأت بالقائها سنة ١٩٥٩، قبولا حسنا بين الطلبة مما دفع رئيس دائرة التاريخ الى ان يطلب الي الاستمرار فيها عام ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ وعام ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤، ومن ثم، كل عام، دون انقطاع.

ومع انني كنت في مطلع العام الدراسي اعيد النظر في محاضراتي وانقحها واعيد كتابة مقاطع منها، فانني لم اغير قط تلك المقاطع المتعلقة بماركس. وكنت حتى سنة ١٩٦٧ اعالج الماركسية من زاوية

الفكر الليبرالي الكلاسيكي، فاتناول ماركس من حيث انه مفكر اوروبي « اخر » وانقد نظريته الجدلية في ضوء « الفشل » الذي اصاب تنبؤاته حول حتمية انهيار النظام الرأسمالي والشكل الذي اتخذته الماركسية في الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية الاخرى. وهكذا بقيت ارفض الماركسية، طوال سنوات عديدة، بشكل لا يقبل اعادة النظر.

وفي صيف ١٩٦٧ اخذت في اعداد محاضراتي لفصل الخريف، ولسبب لا ادري مصدره ابتدأت بماركس. وما ازال اذكر قراءتي لماركس ذلك الصيف! شعرت كأنني اقرأه للمرة الاولى. لم اعرف تجربة هزتني بهذا الشكل منذ قراءتي الاولى ـ وانا في السابعة عشرة ـ لنيتشه. لكن وقع نيتشه، في تلك السن، كان عاطفيا اكثر منه فكريا، بينما نفذ ماركس الى اسس تفكيري.

وكان من نتائج هذه التجربة انها كشفت لي عن مقدرة الثقافة المسيطرة في تكوين عقلية الفرد واخضاعه لقيمها وتضليله على اعمق المستويات. وشعرت انني ابتدأت بكسر القيود الفكرية التي كبلتني، واصبحت اسير في اتجاه فكري مستقل استمده من قوة داخلية وليس من قوة تسيطر علي من خارج. وادركت ان الخطوة الاولى الى التحرير تكمن في التحرير الذاتي، وان بداية التحرير تكمن في التخلص من عبودية الفكر المسيطر.

ولكن سرعان ما اكتشفت ان تحقيق هذه الخطوة ليس امرا سهلا وانما هو في غاية الصعوبة. اذ ان التحرر الذهني يتطلب عملية غسل للدماغ، جذرية وطويلة المدى، واعادة نظر في جميع ركائز الفكر الموروث، والمستمد من الثقافة المهيمنة، واخضاعه لنقد مستمر

وشامل.

في هذه الفترة تبين لي امر آخر : من الممكن، في ظرف تاريخي معين، ان يؤمن المرء ايمانا راسخا بامكانية الثورة وتغيير المجتمع جذريا، وان يكيف فكره مع هذا الايمان، ويخضع حياته له.

اصبحت « الثورة » بالنسبة لنا انذاك كلمة السحر التي رفضنا، استنادا اليها، الواقع المر الذي كنا نعيشه ونتوق الى تجاوزه نحو عالم جديد حددته قراءاتنا للفكر الثوري من ماركس الى ماركوزا. كلما ذكرت تلك الايام الذهبية تكاد الدمعة ان تطفر من عيني. ايام الثورة كانت ايام المحبة ـ محبتنا للانسان والارض وللعالم ولبعضنا بعضا. ولم يكن العنف الثوري نفسه الا تعبيرا عن هذه المحبة. والعنف كما تكلمنا عليه لا كما مارسناه (فممارستنا الوحيدة كانت كلامية)، كان عنفا نبيلا مطهرا يقهر قوى الظلم والاستعباد، ليبني على انقاضها عالما جديدا تسوده العدالة والحرية واخوة الانسان للانسان.

ولا اغالي اذا قلت انني في تلك الايام تحولت الى شخص افضل من الشخص الذي كنته قبل الثورة، فكرا وشعورا، ونية وعملا. فضعفت نزعتي الانانية وانفتحت على الآخرين واصبحت اشعر بتأنيب الضمير اذا ما فكرت بنفسي قبل ان افكر بزملائي، او اذا اهتممت بمظهري او قمت بعمل او تفوهت بكلمة بدافع حب الظهور (وطوال هذا السنوات لم البس سترة او ربطة عنق الا فيما ندر، وتخليت عن معظم عاداتي « البورجوازية » وابتعدت عن اصدقائي البورجوازيين).

لعل هذه الفترة كانت اسعد فترات حياتي. كانت حافلة بالعمل

والامل والاجتماعات والخطب التي قادتني الى ان اطوف جميع انحاء اميركا. وهكذا شاهدت البلاد الاميركية وتعرفت على شعبها تعرفا صحيحا للمرة الاولى، فلم تبق مدينة في الشمال او الجنوب او الغرب الا زرتها لالقاء كلمة او لحضور اجتماع.

انكر اول مهرجان خطابي اشتركت فيه. كان في نيويورك في جامعة كولومبيا، احدى اكبر واقدم الجامعات الاميركية. وجهت الدعوة مجموعة من الطلاب الراديكاليين لبحث ازمة الشرق الاوسط وعرض وجهة النظر الفلسطينية. كنا خمسة خطباء، اميركيين اثنين وثلاثة عرب : الدكتور جورج طعمه، رئيس الوفد السوري الدائم الى الامم المتحدة في ذلك الوقت، والدكتور الياس شوفاني استاذ التاريخ في ذلك الحين بجامعة ماريلند بالقرب من واشنطن، وانا. وقبل افتتاح الجلسة ببضع دقائق اقتحم القاعة ما يقارب المئتي شاب يهودي احتلوا المقاعد الامامية واخذوا يصفقون ويهزجون وينشدون الاناشيد الصهيونية. وعند الوقت المحدد دخلنا القاعة يحيط بنا بعض الطلبة واخذنا اماكننا على المنصة، وفي الوقت نفسه تغلغل عدد من الطلبة والطالبات من مناصرينا بين الصهيونيين واخذوا باسكاتهم تارة بالحسنى، وتارة بالقوة. والطريف ان اسلوبهم في استعمال القوة كان حازما بشكل لم يحدث اي اضطراب قد يؤدي الى تدخل البوليس، وفض الاجتماع. فكان الطلاب المناصرون يحيطون بالصهيونيين ويطلبون اليهم بأدب ان يكفوا عن الانشاد، فاذا رفضوا حملوهم بصمت حازم والقوا بهم خارج القاعة.

وابتدأ الاجتماع في الوقت المحدد والقى كل منا كلمته في جو رائع من الحماسة كانت سيطرتنا عليه سيطرة كاملة. وقد جلس من

تبقى من الصهيونيين بلا حراك يستمعون الى الخطب حتى نهاية الاجتماع الذي استغرق ما يقرب من خمس ساعات ودام الى ما بعد منتصف الليل. وخرجت في نهاية الاجتماع ممتلئا بنشوة الانتصار. وكان لهذه التجربة ان تتكرر مرارا في انحاء اميركا، وكنا دوما ننتصر بحلفائنا على الصهيونيين حتى اصبح هؤلاء يخافون اظهار هويتهم في الاجتماعات التي كانوا يأتون اليها نعاجا ونأتي اليها اسودا.

ـ ٥ ـ

حررني موقف الرفض من القيود النفسية والفكرية التي كانت تكبلني ودفعني الى الالتحام بكل حركة تحرير في العالم. من هنا صرت اشعر ان قضية الشعب الفيتنامي هي قضيتي، وان قضية كل شعب مستعبد، في افريقيا او آسيا او اميركا اللاتينية، هي قضيتي ايضا. وادركت ان قضية الحرية قضية واحدة لا تتجزأ. فاذا اردت الحرية لشعبي اردتها بالضرورة لكل الشعوب المستعبدة واذا عاديت الاستعمار عاديته بجميع اشكاله وفي الظروف كلها.

ان الفلسطيني لا يمثل تحرير فلسطين وحسب، وانما يمثل ايضا، موضوعيا، ارادة التحرير الانساني الشامل، وان لم يستوعب ذلك ذاتيا كل فلسطيني.

وتأكد لي في تلك الفترة ان المرء يربح نفسه باعطاء نفسه. وما شعرته داخليا رأيته في سلوك الشبان حولي. وفي حين خسرت صداقات قديمة ربحت رفقاء جددا لم اعرف مثلهم قبل ـ لصدقهم وصراحتهم ومحبتهم التي خلت من اي عقدة او غرض. واعادتني هذه الصداقات الى سنوات شبابي، ومكنتني من التغلب على آثار النكبات والانكسارات التي سادت سنوات شبابي. وتذوقت نشوة لم اعرفها

من قبل.

-٦-

في سنة ١٩٦٩ كتبت - في اوقات « الاستراحة » بين الخطب والاجتماعات - كتابي الاول عن القضية الفلسطينية بعنوان The Lethal Dilemma : Palestine and Israel وترجمته دار النهار واصدرته بعنوان « المقاومة الفلسطينية في وجه اميركا واسرائيل». لا اعرف حتى الان كيف تم نشر هذا الكتاب في احدى كبريات دور النشر في نيويورك وفي قعر دار الصهيونية. قد يكون ذلك لعدم وجود موظفين صهيونيين في هذه الدار، او ربما بسبب التقارير الايجابية التي قدمها الاساتذة الاميركيون الذين طلب اليهم مراجعة مخطوطة الكتاب. كان هذا على اية حال اول كتاب « ملتزم » ادفع به للنشر.* وكان ذلك اول خروج عن الخط الاكاديمي « الموضوعي » الذي كنت اتبعته في كتاباتي ومحاضراتي للحفاظ على مركزي الجامعي ولحماية نفسي من تهجم الاساتذة الصهيونيين. وكان ذلك الخروج بمثابة « اعلان الاستقلال » عن المؤسسة الاكاديمية والتزامي بقضية شعبي وقضايا التحرير في العالم.

وفي صيف ١٩٦٩ قمت بزيارة قواعد المقاومة في الاردن واجتمعت بالمقاتلين في الاغوار وبقادة المقاومة. وكانت نتيجة هذه المرحلة دراسة حول العمل الفدائي نشرتها مؤسسة الدراسات الاستراتيجية في جورجتاون بالانكليزية ثم ترجمتها الى العربية مؤسسة الدراسات الفلسطينية. وفي مطلع ١٩٧٠ شعرت بما يشبه

* لدى تصفحي هذا الكتاب مؤخرا وجدته هزيلا تنقصه النظرية الواضحة والتفهم الصحيح لواقع الامبريالية الاميركية، لذلك تخليت عنه باستثناء بعض فصوله التحليلية.

اليقين ان الاشهر المقبلة ستكون حاسمة بالنسبة الى حركة المقاومة ومستقبلها، فاخذت فرصة من الجامعة وركبت الطائرة الى حيث كان ايلول الاسود بانتظاري.

ـ ٧ـ

لم تدم نشوة الثورة طويلا.

كيف لها ان تدوم في عالم قاس خبيث هو الجحيم بعينه ؟ لكن لم يكن بامكاني العودة الى سابق عهدي، فقد تفتحت عيناي ولم يعد باستطاعتي اغلاقهما.

كان اصدقائي في بيروت يعيشون حياتهم كأن الدنيا ما زالت بالف خير. همهم الوحيد في الحياة تأمين وسائل راحتهم والتمتع بما اسبغته عليهم سنوات العمل والكد من مال ومركز. ووجدتني احاول الخروج من علاقاتي الماضية، ومن الحالة التي فرضتها على ثقافتي وطبقتي الاجتماعية، ولكن دون جدوى. حينذاك بدأت افقد الشعور بالنشوة. ورويدا رويدا ادركت ان الثورة ليست امرا سهلا وانها لا تحصل لمجرد ايماننا بضرورة حصولها. وبدأت اعي ان التحول الاجتماعي امر معقد وفي غاية الصعوبة. لكن ذلك لم يزعزع يقيني لحظة واحدة بان النظام القائم فاسد وان من الواجب تغييره. وبقيت على موقف الرفض.

مذ ذاك، اخذ تفكيري اتجاها جديدا يدور حول واقعنا الاجتماعي واسباب فساده. واخذت بالتساؤل حول تركيب مجتمعنا العربي وطبيعة السلوك الاجتماعي فيه.

تساءلت، مثلا، لماذا نعجز عن العمل لتحقيق اهدافنا الاجتماعية في حين تبدو الظروف الموضوعية مؤاتية لتحقيق هذه الاهداف ؟ لماذا نحن فرديون وسلبيون في تصرفاتنا الاجتماعية الى حد يمنعنا حتى من التعاون، في حين ان التعاون من مصلحتنا جميعا ؟ لماذا نقبل في اعمالنا ما نرفضه في اقوالنا وتفكيرنا الخاص ؟ ما الاسباب الاجتماعية (الموضوعية) وما الدوافع النفسية (الذاتية) التي تضع هذه الهوة بين ما نرمي اليه بالقول وما نفعله بالممارسة، فنبقى غائصين في تناقضاتنا عاجزين عن تغيير وضعنا ؟

ـ٨ـ

يقول لينين (في احدى مقالاته عن ماركس) انه في فترات « الركود » و«الهبوط الموقت في الثورة » يأخذ المثقفون بالتخلي دون ابطاء عن « الاوهام الثورية » لقاء اشياء طفيفة ولكنها « واقعية ». ربما هذا ما حدث لي. لست ادري. لكن المهم ليس تبرير موقفي، فانا قد أكون عاجزا عن ذلك، بل عن استيعاب الاسباب التي دفعتني الى هذا الموقف والى التراجعات التي انطوى عليها.

لقد اخذت على نفسي ان اكون صادقا مع نفسي، وان ارفض التمويه مهما كانت الدوافع والاسباب. عندما عادت فترة « الركود » كان من السهل ان اصمت واعود الى ممارسة مهنة التدريس واعيش حياتي كما عشتها في السابق. وكان « عذري معي »، فطبيعة عملي كانت تتطلب الابتعاد عن الناس. لكن كان من المستحيل ان ارجع الساعة الى الوراء واعيش حياتي كأن شيئا لم يحدث.

وفي حالة الكآبة التي اجتاحتني في فترة « الركود »، التي ابتدأت بالنسبة الي في مطلع سنة ١٩٧٢، اخذت ابحث عن مخرج. وراودتني التساؤلات المؤلمة التي اشرت اليها. وفي صيف ١٩٧٢ التقيت بصديقي القديم مختار عاني في بيروت، وكان قد تقاعد من جامعة جورجتاون في السنة السابقة وانصرف الى دراساته الخاصة في حقل الانثروبولوجيا. واكتشفت انه كان مهتما بالموضوعات عينها التي دارت حولها تساؤلاتي. واتفقنا ان نتعاون في البحث والدراسة حول هذه الموضوعات لدى عودتنا الى واشنطن.

وبالفعل اخذنا نجتمع في خريف ١٩٧٢ في بيتي بواشنطن ثلاث او اربع مرات كل اسبوع بين العاشرة والثانية عشرة نتباحث في الموضوعات المتعلقة بالمجتمع العربي والقيم الحضارية السائدة فيه ونتدارسها.

اتبعنا في بحثنا منهجا يجمع بين التحليل النفسي والعرض الاجتماعي. وكان منطلقنا الاساسي سلوك الفرد الاجتماعي وعلاقته بالتربية العائلية والتثقيف الاجتماعي المعبرة عن هذا السلوك واخذنا في تحليلها الواحدة تلو الاخرى. وكانت المصادر التي اعتمدناها بادئ الامر، الجرائد والقصص والكتب المدرسية، ثم اخذنا بعد ذلك في تركيب « النماذج » المستمدة من اختباراتنا لانماط السلوك والقيم السائدة في مجتمعنا. وكنا نستعيد ذكريات طفولتنا ونقارن هذه الاختبارات بالمعلومات والوقائع ونستخرج منها القيم والمثل

والاهداف واساليب التربية والتثقيف السائدة في العائلة والمدرسة. وما ان مضت بضعة اسابيع حتى تبين لنا ان سلوكنا الاجتماعي وتركيب مجتمعنا مترابطان ترابطا وثيقا وان المنطلق الاساسي لتفهم هذه العلاقة يكمن في تحليل العائلة والعلاقات التي تقوم عليها، وخصوصا علاقة الوالدين باطفالهما وكيفية تربيتهم ومعاملتهم في مراحل حياتهم الاولى. واكتشفنا ايضا ان التربية والتثقيف في العائلة وفي المدرسة انما يهدفان الى قولبة الفرد على النحو الذي يريده المجتمع وتقرره الثقافة المسيطرة التي سميناها الثقافة الاقطاعية البرجوازية، والتي تمثل نمط الحياة المسيطرة في مجتمعنا.

كيف للمجتمع ان « يريد » وللثقافة ان « تقرر » واين نجد تعبير هذه الارادة ؟ الواقع ان المجتمع بثقافته المسيطرة، لا يفرض بوساطة نظامه الاقتصادي وتركيبه الاجتماعي (الطبقي) كيفية توزيع السلطة والجاه وحسب بل يخضع ايضا كل فرد من افراده لعملية تربية وتثقيف هدفهما الحفاظ على النظام القائم وتأمين استمراره على الشكل الذي هو فيه. وهو لذلك يفرض على كل فرد من افراده ادوارا اجتماعية لا يستطيع تبديلها او الخروج منها، طوال حياته. ومجتمعنا، ككل المجتمعات اللاصناعية التي ما تزال شبه اقطاعية في مؤسساتها والعلاقات القائمة فيها، انما يحافظ على بقائه واستمراريته بالمحافظة على « عاداته » و « تقاليده » و « قيمه » و « عقيدته ». وهو بذلك انما يحافظ على العلاقات الانتاجية وعلى احتكارات الطبقة الصغيرة المسيطرة فيه. وقد وجدنا ان الطابع الذي يطبع جميع هذه العلاقات هو طابع **السلطة الفوقية**. فصاحب السلطة في المجتمع (ومن يمثله او يمثل سلطته) هو الذي يملك

ويستفيد، بينما باقي « الناس » تقبل وترضخ وتمتثل. « والكبير » في مجتمعنا هو دوما الذي يتسلط ويحكم ويسيطر. فالقرارات تؤخذ « من فوق » بمعزل عن الاكثرية التي تشكل هدف هذه القرارات. ليس الكبير صاحب السلطة والمركز (الملك، الرئيس، العقيد) الا صورة مكبرة للاب في العائلة ـ بتصرفاته ونظرته لنفسه وعلاقته بمن هم دونه. انه يجد السلطة التي يختبرها كل منا اول ما يختبرها في العائلة قبل ان يعيشها الى آخر حياته في المجتمع. ان الارهاب والقهر والرضوخ التي يعانيها كل منا في المجتمع هي نفسها التي عانيناها في طفولتنا وفي فترة تربيتنا وتثقيفنا.

لهذا ليس مستغربا ان ينمو الفرد الذكر في مجتمعنا قضيبيا ينزع في شخصيته الى حب البروز والسيطرة، ويحتقر المرأة، ويميل الى اذلال من هم اضعف منه فتكون شخصيته على صورة ابيه وارتكاسا لها.

ان النزعة العدوانية (aggressive impulse) التي يقول فرويد انها تبدأ في البروز في الفترة الثانية من تطور الطفل البيولوجي، اي ابتداء من السنة الثانية من عمره عندما ينتقل اهتمامه الى عملية البراز فينظر الى برازه مثلا كشيء ثمين وهام (anal period)، هذه هي النزعة السائدة التي تطبع الشخصية القضيبية (phallic personality) التي يصنعها مجتمعنا، اعتمادا على التربية العائلية وطريقة معاملة الأطفال. ونرى هذه الشخصية القضيبية مجسدة في اشكال ونسب مختلفة من العدوانية والشراسة. وهي على اختلاف اشكالها تتميز باعتزازها بذاتها وبشعورها انها شيء خطير وانها هدية الآلهة الى هذا العالم. ويجد صاحبها لذته في الحياة في ابراز الأنا، فهو شديد الحرص على التأكد من احترام الناس

له، وفي التشديد على منزلته والدفاع عن سمعته. وهو يجد احترامه لنفسه في فرض نفسه على الآخرين، وفي تحقيرهم، خصوصا اذا كانوا من اقرانه واخوانه. انه في كثير من تصرفاته لا يزال طفلا، يتأمل برازه كل صباح باهتمام وعطف كبيرين.

— ١٠ —

لم يدم التعاون بيني وبين مختار عاني طويلا، ففي نهاية خريف ١٩٧٢ افترقنا وانصرف كل الى عمله. ولكننا بقينا على اتصال، نجتمع ونتبادل الرأي بين الحين والآخر. وقد شعرت في نهاية تلك الفترة بالحاجة الى بلورة نظرية اجتماعية واضحة ومنهج للبحث اكثر دقة من المنهج الذي اتبعناه حتى ذلك الحين. فانصرفت الى القراءة المكثفة في العلوم الاجتماعية ومناهجها، وخاصة في علم الاجتماع والانتروبولوجيا وعلم النفس التحليلي. واستغرقت قراءاتي هذه ما يقارب السنتين، وكان لها اكبر الاثر في تطوير فكري وامتلاكي القدرة على معالجة الوقائع الاجتماعية بشكل علمي منتظم. وصار بامكاني جمع النتائج التي توصلت اليها ضمن ارضية علمية واضحة وارسائها في اطار نظري متكامل. واكتشفت ان معظم الصعوبات النظرية التي عانيناها، مختار عاني وانا، كان مصدرها ضعف الاطار النظري الذي اعتمدناه في معالجة الوقائع وتحليلها. وهكذا تعلمت بالممارسة ما كنت قد عرفته نظريا : لا يمكن تفهم معنى الاحداث والعلاقات الاجتماعية دون نظرية علمية متماسكة. فما يبدو على السطح، ليس له معنى ثابت، الا بقدر ما نتمكن من ربطه بالعلاقات القائمة خلف الظواهر.

ان هذا كله، هو ما اثبتته بالفعل النظرية العلمية الاولى في حقل العلوم الاجتماعية التي قدمها ماركس، والنظرية النفسية التحليلية التي قدمها فرويد. واصبحت اومن انه دون نظرية شاملة كهاتين النظريتين نبقى في موقع سطحي ساذج، نرى الاحداث تراكما فوضويا عبر التاريخ، ونعتبر سلوك الافراد والجماعات تصرفات هادفة وعقلانية.

كان لقراءتي فرويد اثر في نفسي كالاثر الذي تركه ماركس بعد قراءتي الجديدة له. وكنت حتى ذلك الحين احاضر عن فرويد بشكل موضوعي متجاف يقوم على عرض سريع يتبعه نقد شامل وقاس لنظريته واسلوبه المنهجي. ومع اني توصلت الى تفهم فرويد تفهما واسعا من الناحيتين النظرية والمنهجية، فقد بقيت ارفضه بشكل مبدئي وبعقل مغلق تماما. رفضت بالاخص قبول مبدئه القائل بأولوية اللاوعي في النظام الذهني وبالاهمية المركزية لتجارب الفرد في طفولته وتأثيرها في تكوين شخصيته وتركيبه النفسي العام. وكانت ثقافتي المثالية تعجز عن هضم منطلق فرويد الاساسي، وهو ان العقل الواعي

(reason) ليس الا جزءا طفيفا من العقل اللاواعي(unconscious)الذي تنطلق منه القوى والدوافع المستترة التي تسير الفرد في كافة نشاطاته العقلية والعملية. وكنت ما ازال اؤمن بان العقل وحدة لا تتجزأ، وانه يمثل القوة الروحية التي تضفي على الانسان انسانيته المميزة وتسبغ عليه حريته وقيمته الاخلاقية المطلقة.

من هنا كان موقفي السلبي المتعنت نحو فرويد وماركس، وهمي المستمر في محاضراتي ان اظهر قصور نظريتهما (النظرية

الجدلية والنظرية التحليلية) وان ابين، بالاسلوب الليبرالي الساخر، تخلفهما عن الانجازات العلمية والمنهجية التي حققتها العلـوم الاجتماعية التجريبية في الغرب خصوصا في السنوات العشرين او الثلاثين الماضية في اميركا.

ــ ١١ ــ

تركني الجزر الثوري، وتركتني تراجعاتي عن مده، على شاطئ مهجور لم اعد املك فيه الا سلاح النظرية والمنهج، سلاحي الوحيد ضد التمويه والتضليل والكذب على النفس. ومن هذا الموقع الامين اصنع الآن المتاريس الخيالية واحارب من ورائها اشباح عدو يقبع في خندقي. ومن جديد البس ستراته وربطات عنقه، واستمتع بامتيازاته، واعيش في ظل نظامه. اما الغضب فقد كبته، واما الاشمئزاز فقد البسته ثوبا من الكلمات لا يؤذي احدا.

موقف يائس ؟ لا اظن.

ان في هذه المقدمات الكثير من الثقة والتفاؤل وان وراء النقد الرافض وميضا من الأمل لا تستطيع حالة ذاتية ان تقتله. ان يأس من يقدر ان يلبس ربطات العنق ويؤمن العيش المريح ويصاحب ذوي المراكز والجاه، لا يتعدى في آخر الامر، مهما عظم، حالة نفسية عابرة. وحين يمتلك المرء الوعي الصحيح ويعجز عن الفعل الممارس، يكتشف انه، اذ يفشل في تقديم حياته لما هو ابعد من حياته، يضيعها

بالهرب منها واستنفادها، ويدرك ان لا مهرب من الفراغ الذي يملأ حياته، واذ ذاك يعرف ان لا فائدة من التمويه على نفسه او على الآخرين.

بيروت، آب ـ ايلول ١٩٧٤

سُلوكنا الاجتماعيّ وبُنيَة العَائلة في المجتَمع العَربيّ

ان دراستنا هذه هي في الاساس محاولة لتحقيق المعرفة الذاتية، واذا كان الوعي الصحيح اساسا للنقد البناء فهو ايضا اساس السلوك العقلاني. وكما اننا نرى ان اي تغيير فعلي في مجتمع ما لا يمكنه ان ينبثق الا من صميم ذلك المجتمع (اي بتغيير الذات)، فالتحرر الصحيح لا يمكن ان يحصل الا من خلال عملية تنبثق من قلب المجتمع (اي التحرر الذاتي). كذلك نقول بان المعرفة السليمة لذلك المجتمع لا بد ان تصدر عن ذلك المجتمع نفسه، واذا كانت المعرفة تقصد العمل لا الفكر المجرد فحسب فيجب ان تكون معرفة ذاتية قائمة على معرفة النفس ومستمدة من اختبار داخلي صميم.

قد تتعرض هذه الدراسة عند نشرها في العربية الى كل انواع الهجوم من جانب المجتمع التي هي موجهة اليه، وقد يتهمنا البعض بارتكاب الاخطاء والمغالطات، وقد يقدم البعض الآخر على رفض بعض فرضياتنا ونتائجنا، كما اننا قد نتهم بالنية السيئة بسبب « قولنا اشياء كهذه » عن بني قومنا، كذلك فاننا قد نتهم بمؤازرة اعدائنا لمجرد اننا كنا نشرنا هذا البحث بلغة اجنبية.

والواقع ان هذا الاحتمال الاخير هو الذي اقلق بالنا نوعا ما، واذا كنا قد قررنا الاستمرار في مشروعنا فلأن المجتمع العربي واقع لا يمكن اخفاؤه، وقد غدا موضوعا لعدد متزايد من الاستقصاءات يقوم

بها علماء الاجتماع والانتروبولوجيا واختصاصيون بعلم النفس الاجتماعي والعلوم السياسية، واذا كانت دراستنا هذه قد زادت في المعرفة المتوافرة حتى الآن، فيجب النظر اليها كثمن يجب علينا دفعه لتحقيق المعرفة الذاتية التي نصبو اليها.

ان القسم الاول من دراستنا الملخصة في هذا البحث يتناول قضية العائلة وتكوين الشخصية في اطار العائلة. ويتركز التحليل في هذا البحث على الارتباط الموجود بين العائلة والمجتمع الذي تعيش فيه، كما يتركز على اثر طرق تربية الطفل وتجارب الطفولة في تكوين السلوك الاجتماعي في الفرد. ونحن نأمل ان نقدم فكرة عامة عن كيفية معالجة الموضوع وعن الاطار الفكري العام لهذه الدراسة. فانه من الضروري ان نشير هنا الى ان السهولة النسبية في وصف الارتباطات القائمة بوضوح بين بعض الظواهر لا تقابلها سهولة مماثلة في تبيان العلاقات الخفية القائمة بين هذه الظواهر. مثال ذلك : عندما نقول بان تخجيل الطفل يؤدي الى اضعاف شعوره بالذنب وبالتالي الى اعاقة نمو الأنا الاعلى (superego) عند الراشد، فاننا بذلك لا نقول بوجود علاقة سببية ضرورية (Causal relationship) عند الراشد، بل أننا نكتفي بتوضيح الروابط التي يمكنها ان تفسر الظواهر الاجتماعية او النفسية عندما يتم النظر اليها في اطار معين. ان امكانية اثبات هذه الروابط كفرضيات (لا يوجد امكانية للبرهان عليها تجريبيا) تنبع اساسا من تصور الروابط هذه في اطار نظام عام للعلاقات الاجتماعية. واملنا الا تقتصر هذه الدراسة على ناحيتها النقدية، وبذلك تكون عامل تنبيه لعلماء الاجتماع العرب للقيام بابحاث تتناول قضايانا الاجتماعية الحيوية ولا تقف عند الابحاث الاكاديمية التي

اعتدنا تناولها بسبب ثقافتنا الاجنبية.

ان منطلقنا الاساسي في هذا البحث هو ان العائلة كمؤسسة اجتماعية هي الوسيط الرئيسي بين شخصية الفرد والحضارة الاجتماعية التي ينتمي اليها، وان شخصية الفرد تتكون ضمن العائلة، وان قيم المجتمع وانماط السلوك فيه تنتقل الى حد كبير من خلال العائلة وتتقوى بواسطتها.

اما القواعد التي نرتكز عليها في هذا المنطلق فيمكن تلخيصها كما يلي:

١ ــ عندما يولد الطفل تكون ذاته غير متكونة وهي تتكون بصورة تدريجية، كنتيجة للتفاعل بينها وبين ذوات اشخاص آخرين. انها في الواقع سلوك متعلم يتكون قبل بلوغ الفرد وعيه الذاتي.

٢ ــ ان الذات منظمة تنظيما تصاعديا وهي مؤلفة من عدة مستويات يجري اكتسابها في سياق النمو والتجربة. المستوى الاول هو الاكثر اهمية اذ عليه يرتكز اطار الشخصية الاساسي، وتمثل الام فيه دورا حاسما من حيث اثرها في تكوين شخصية الطفل. اما الأصعدة الاخرى التي تشمل التعلم في الطفولة والمراهقة، والادراك والوعي في سن البلوغ، فهي ذات اهمية على درجات مختلفة.

٣ ــ ان الانسان حصيلة عوامل وراثية وبيئة وهو، تعريفا، حيوان اجتماعي وبالتالي مجموعة العلاقات الشخصية المشتركة. والواقع أن الانماط التي تتخذها هذه العلاقات فيما بعد تتكون الى حد كبير في السنوات الاولى من حياة الطفل.

٤ ــ ان طرق تربية الطفل تمثل دورا حاسما في تعيين نوعية الشخصية من حيث ارتباطها بمجتمع معين، ودلالتها عليه، ولذا فان فهم طرق تربية الطفل يؤدي الى فهم السلوك الاجتماعي ودوافعه في

المجتمع.

٥ ــ ان التصرف والمواقف التي يتخذها الوالدان ضمن العائلة تؤثر تأثيرا حاسما في نمو الشخصية، وذلك لانها تؤثر في حاجات الطفل الاساسية وتأمين استمراره في الوجود وتمتعه بالاطمئنان العاطفي. ويستمر الوالدان طول مرحلة الطفولة في تمثيل دور خطير الاهمية في ما يتعلق بضبط دوافع الطفل وارواء حاجاته وتحديد مقاييسه والتأثير في مختلف مراحل نمو الأنا كما في نتائج هذا النمو[1]. والواقع ان الفرد البشري يعيش في هذه الحقبة من حياته حساسية قصوى بالنسبة الى شروط البيئة وسائر العوامل المؤثرة.

٦ ــ ان التغييرات التي تطرأ على طرق تربية الطفل وعلى تجارب الطفولة تنبع قبل كل شيء من موضع الطبقة الاجتماعية التي تنتمي اليها العائلة، اي من مستواها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، كما تنبع من وضعها الاثني والديني والاقليمي. ان هذا البحث يتركز على نموذج عائلة عربية تجسد القيم والمواقف السائدة في وسط اسلامي مدني، وفي طبقة اجتماعية وسطى او اقرب الى الوسطى، هذا مع العلم ان بعض التعميمات يمكن ان تنطبق على المجتمع العربي ككل بما فيه البدو والفلاحون.

العائلة الممتدة (The extended family)

ان الشكل السائد في بنية العائلة العربية هو العائلة الممتدة، وفي

[1] David P. Ansbal and Edmund V. Sullivan, **Theory and Problems of Child Development** (New York, 2nd ed. 1970), p. 303.

ما خلا بعض الاستثناءات فان العائلة الممتدة لا تسكن عادة في بيت واحد. ففي المدن الصغيرة والكبيرة نجد ان العائلة قد تعيش في حي واحد او قد تتوزع على عدة احياء من المدينة، فالفقراء قد يتكسسون في غرفة أو غرفتين، بينما يعيش الميسورون في دارات انيقة، او في شقق مختلفة الحجم والاناقة.

وكما سيبدو لنا بوضوح فان الصفة المميزة للعائلة هي استمرار الانماط الاساسية للروابط العشائرية في تنظيم العائلة وعلاقاتها. وبالرغم من ان سيطرة الاب على العائلة قد فقدت من شدتها، فان وضعه فيها يبقى اساسيا، وهناك، في بلدان « متقدمة » كسوريا ولبنان عائلات كبيرة من الطبقة الوسطى والاقرب الى الوسطى تنعكس فيها بوضوح بنية العائلة العشائرية. ويمكننا ان نطلق على هذه العائلات تسمية العشيرة او العائلة لان العشيرة والعائلة، تصبحان في الواقع شيئا واحدا. وتجدر الاشارة هنا الى ان الروابط العشائرية هي اقل تماسكا في الطبقات الفقيرة خاصة بين فقراء المدن من جهة، واوساط الطبقة الوسطى ذات الثقافة الغربية من جهة أخرى. ومع ذلك فان الاب يظل يمارس سلطة واسعة في هذه الاوساط بالذات. والزواج في العائلة يجري في معظم الاحيان في اطار القربى العائلية. والمرأة يجري تدريبها لتصبح امرأة مكرسة للواجب، وواجبها الاول في الزواج لا تتوثق عراه قبل انجاب الاولاد، والصبي البكر هو اثمن ما تملكه العائلة. انه «روح امه» و«حبيب قلبها» الذي « سيقبرها » ويظل البكر، حتى بعد ولادة اطفال آخرين، عالم امه الوحيد ودليل قيمتها كامرأة، وضمانا لحياتها في المستقبل.

والعائلة ميدان تفاعلات مستمرة وشديدة بين مختلف

اعضائها، وهذا في الواقع مصدر كل ما في الحياة العائلية من سعادة وتعاسة. فعاطفة الحب لا تشكل لحمة العائلة ولا توجد في اطارها تعبيرات واضحة عن الحب، ما خلا بعض العواطف الحارة التي تبديها النساء تجاه الصبي، حتى لو كان الاب لطيفا وحنونا فهو يبقى بعيدا عن متناول اطفاله لما يبديه من ابتعاد وتعال، ولذلك فان الطفل في معظم العائلات ينمو ويشعر ـ على درجات متفاوتة ـ بانه مكبوت ومظلوم وتعس. ويصف هذا الشعور وصفا دقيقا شاب تونسي مسلم ترعرع في عائلة من عائلات الطبقة الاقرب الى الوسطى في مدينة تونس فيقول :

« من منا نحن العرب يستطيع ان يزعم بأن عائلته او البيئة التي قد عاش فيها قد ارادته وقبلته واحبته واعترفت بذاتيته ؟ لا احد بكل تأكيد. اذ كيف يمكن للانسان ان يكون محبوبا عندما ينحصر وجوده في كونه شيئا مفيدا قد جرى انتاجه من اجل استمرار العائلة وضمان شيخوخة الوالدين، او من اجل ارضاء كبرياء الاب الذي يثبت رجولته بكثرة اطفاله ...»[1]

وسرعان ما يكتشف الطفل النزاع والتوتر الموجودين في صلب العائلة، كما يظهر ان في عداء الام نحو الاب، وهو في كثير من الاحيان عداء مبطن، وكما في عداء الاخ نحو اخيه والاولاد نحو والديهم.

الا ان اشد عداء يشعر به الطفل الذكر هو تجاه ابيه، مصدر السيطرة التي تحطمه وتجعل العائلة تعيش في جو من الطغيان. وهذا ما يعبر عنه الشاب التونسي بقوله :

Mahomed Karoui, «Une fois un Arabe... Une fois des Arabes...» **Les temps moderne, Septembre — Octobre, 1972, p 347.**

«انه (اي الاب) لا ينجبنا من اجل ذاتنا، بل من اجل نفسه، وليس نحن الذين نأتي الى العالم، بل هو الذي يرى حياته مطبوعة بطابع التبرير والقيمة، وهكذا فان ولادتنا ليست ابداعا حرا، بل محاولة لتمديد حياة الاب، انه ينجبنا لنكون سندا لحياته، وبالتالي فهو يحرمنا من حياتنا نحن. فنحن لا نعيش بل نتيح له ان يعيش هو من خلالنا، وهذا ما يجعل حياتنا مزيفة منذ البدء، والواقع ان هذه الخاصة لا يتصف بها العربي وحده بل اننا نجدها في مختلف المجتمعات والعصور ولكننا نحن العرب نذهب بها الى ابعد الحدود »[٢]

ان تماسك العائلة يتحقق بواسطة ادراج الطفل في المجتمع من خلال اعتمادة على العائلة وربطه بها ودعمه اياها.

ومن اهم نتائج هذا الاعتماد ان الطفل ينمو وشعوره بأن مسؤوليته الاساسية هي تجاه العائلة لا تجاه المجتمع. والابن المتحسس بواجبه هو الذي تدفعه تربيته الى الشعور بان واجبه هو، من جهة، التضحية في سبيل والديه واخوته، ومن جهة اخرى، بذل كل ما في وسعه من اجل اقربائه. فهو مثلا لا يتزوج اذا كان اشقاؤه الصغار ما زالوا في المدرسة او اذا كانت شقيقاته لم يتزوجن بعد، او اذا كان والده في حاجة الى الاعالة. وفي اطار هذه الشروط النفسية والاقتصادية لا يبقى سوى مجال صغير للشعور بالواجب تجاه المجتمع الاكبر الذي يتصوره الفرد كفكرة مجردة لا ينطبق عليها مفهوم المسؤولية بصورة طبيعية. وبالنسبة الى الفرد المرتبط عائليا

٢ المصدر نفسه.

بهذا الشكل، لا يمثل المجتمع سوى عالم الصراع والكفاح الذي ينتزع الفرد لنفسه فيه مكانا ليدعم كيانه وكيان العائلة ورفاهها.

ان العائلة مرتبطة بالمجتمع في علاقة جدلية «ديالكتيكية». فهي تدعم المجتمع وتناهضه في آن واحد. واذا اتفق وجود مطالب اجتماعية وعائلية متناقضة فمن الاسهل على الفرد ان يوفق بين الجهتين بالقيام بواجبه تجاه العائلة لا المجتمع. وهذا ما ثبت مرارا عديدة في وقت الازمات كما جرى عند نزوح الفلسطينيين عن ديارهم في عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧.

والعائلة في خصائصها الاساسية صورة مصغرة عن المجتمع. فالقيم التي تسودها من سلطة وتسلسل وتبعية وقمع، هي التي تسود العلاقات الاجتماعية بصورة عامة. فالنزاع والتباين والتنافر هي عوامل تميز العلاقات بين اعضاء المجتمع، كما تميز العلاقات بين اعضاء العائلة. كذلك فان بنية العائلة القائمة على السلطة الفوقية تقابلها بنية اجتماعية مماثلة ايا كان النظام الاجتماعي، مع العلم ان الفرد مضطهد في كل منهما على حد سواء. ومن حيث هي نظام، تقوم العائلة في آن واحد بتجسيد ودعم النظام الاجتماعي الاكبر. كما ان جميع المؤسسات التي تمثل دور الوسيط، بما في ذلك المؤسسات التربوية والدينية، تقوم هي ايضا بتعزيز القيم والمواقف التي بواسطتها تدرج العائلة اعضاءها في الحياة الاجتماعية. وغني عن القول ان قيم ومؤسسات الطبقات المهيمنة اجتماعيا (الطبقات البورجوازية ـ الاقطاعية) هي القيم السائدة في هذا المجتمع. وبقدر ما يكون الفقراء في المدن والارياف تحت سيطرة الثقافة السائدة فانهم جزء من المجتمع، كما انهم يخرجون عنه بقدر ما ينفلتون من هذه

السيطرة. ومن الواضح ان تغيير المجتمع يقتضي تغيير العائلة والعكس صحيح ، ولكن اذا كان هذا التناقض يتجاوز ارادة او قدرة الفئات المسيطرة اقتصاديا والحاكمة سياسيا فقد يستقر الامر بالاتجاه الذي سيتخذه في السنين المقبلة التطور العفوي في اوساط جماهير الشعب الفقيرة والمستغلة.

السيطرة

وكما ان الصبي يشعر بان اباه يضطهده، فهو يشعر ايضا بان امه تسحق شخصيته. واما البنت فيمكنها ان تكون محبوبة، الا انها تنتمي الى فئة مختلفة غير تلك التي ينتمي اليها الذكور، وهي تلقى في العائلة معاملة مختلفة. ان استعمال كلمة « رضيعتي » للدلالة على الشقيقة و « عضيدي » للدلالة على الشقيق الذي نجده في الكويت وغيرها من البلدان العربية، يشير بوضوح الى ذلك التمييز. والواقع ان الانثى يجري تمييزها عن الذكر بصورة اساسية. فهو، اي الذكر، كسب للعائلة، وهي عبء عليها. والبنت منذ نعومة اظفارها تدفعها العائلة الى الشعور بانها غير ضرورية، وغير مرغوب فيها، وتعلمها على قبول وضعها كأنثى، وهذا صحيح خاصة في العائلات المحافظة اكثر من غيرها.

من المتوقع اذن ان تلقى البنت في اثناء الطفولة اهتماما اقل من الذي يلقاه الصبي، ومن النادر ان تكون مركز الاهتمام الاول في العائلة اذا كان لها اشقاء. ولكن هذا يتيح لها ان تنمو بحرية اكثر، وان تتعلم كيف تواجه المصاعب بنجاح لانها لا تخضع للضغط نفسه الذي يخضع له الصبي. ولذلك فهي تميل الى النضوج نضوجا اسرع،

وتتعلم كيف تواجه مشكلات الحياة بصورة اكثر فعالية من الصبي. ولعل هذا احد الاسباب الذي يجعلها تنجح في مجابهة نظام اجتماعي يحاول سحقها باستمرار. ان المرأة في المجتمع العربي قد لا تمثل في الحياة العامة سوى دور محدود، ولكن اثرها الخفي في العائلة وفي علاقتها مع الرجل كزوجة او ام او شقيقة او جدة هو اثر عميق. فهناك في المجتمع العربي كما في سائر المجتمعات القائمة على سيطرة الرجل ميل عفوي الى الافراط في تضخيم دور الرجل والتقليل من اثر المرأة.

ونعود فنقول ان الام مع سائر الاناث الموجودات في البيت يؤثرن ابلغ تأثير في نمو الطفل اثناء السنين الاولى من حياته. اما الاب فيبقى على الهامش ولا يبدي اهتماما جديا بالطفل الا بعد ان يكبر، وهو في هذه الحقبة نادرا ما يهتم باطفاله الا عندما يخطر على باله ان يلاعبهم او ان يعرضهم على الضيوف. وهكذا فان الصبي هو، في شخصيته الاساسية والى حد كبير، حصيلة عمل امه لا ابيه. انه من ممتلكاتها الخاصة، وهو موضوع اهتمامها وعنايتها الدائمين، بالاضافة الى عناية واهتمام شقيقاته وخالاته وعماته.

وهذا، يعني قبل كل شيء، ان العائلة لا تتيح للطفل سوى مجال ضيق لتحقيق استقلاله الذاتي. فاذا حاول الطفل تسلق الدرج او فتح الباب او زحزحة الكرسي يجد من يقوم بهذا العمل بدلا عنه. وكذلك فهو سرعان ما يتعلم العزوف عن النشاط المستقل، منتظرا من الآخرين ان يقوموا بالاعمال التي يتوجب عليه القيام بها، ومن نتائج ذلك ان الافراط في الاتكال يؤدي عند معظم الاطفال الى شعور بالعجز. كما يؤدي عند البعض الى استغراق الطفل في ذاته واكتساب عادة الخجل والجبن واشكال اخرى من السلوك اللااجتماعي. ان نظام التربية

متصلبا كان ام متساهلا، لا يكتفي بتعليم الطفل انه عاجز عن فعل اي شيء بنفسه، بل يعلمه ايضا انه عاجز عن تحقيق الاحترام الذاتي، بمعنى انه لا يكتسب اهمية الا اذا اعترف الآخرون بها ومنحوه المكانة والتقدير. ان الطفل يتعلم كيف يبني صورته الذاتية، وبالتالي كيف يغذي احترامه لنفسه على اساس رأي الآخرين فيه. وهو يفعل ذلك لانه لا يلقى اي تشجيع في تكوين مقاييس تختلف عن مقاييس الآخرين وتمكنه من تكوين رأي مستقل في نفسه وشؤونه وفي كل الشؤون الاخرى.

ان هذه الظاهرة، كما سنرى فيما بعد، تجد دعما في عدد من انماط الحياة الاجتماعية لا يعلق اهمية كبرى على تنمية قدرة التساؤل الحر عند الفرد وتطوير نضوجه الذهني بشكل مستقل. ان النظام التربوي والاجتماعي يثني الطفل عن الثقة في آرائه الخاصة ويشجعه على قبول آراء الآخرين دون تردد او تساؤل، وهذا ما ينمي في نفسه الاذعان للسلطة، اي لابيه وللشيخ وللمعلم وفيما بعد لكل من هو اقوى منه او اعلى منزلة او جاها. وهو، اذ يكبر، يتعلم ان يكون متحفظا والا يتخذ موقفا حاسما في اي موضوع، لذلك نراه يكتسب عادة « استشارة » الآخرين و « اخذ رأيهم » لعجزه عن اتخاذ قراراته بنفسه. واسوة بشعوره بالخجل فان شكه في نفسه يزداد بسبب فقدانه السيطرة على ذاته، كما يسبب قبوله بالسيطرة الخارجية عليه لدى دخوله المعترك الاجتماعي.

ولا شك في ان الافراط في الحماية كما في العقاب له اثر كبير في نمو شخصية الطفل وتكاملها. مثال ذلك ان الام التي لا تسمح لطفلها ان يلعب وحده في الحديقة او في الشارع فتبقيه دوما الى جانبها تعيق

تحقيق امكاناته تحقيقا تاما حرا. فالطفل « العاقل » هو، في نظر الام، الذي يجلس الى جانبها هادئا، ساكنا، مطيعا. فهي تتصور ان الطفل الحسن التربية هو الذي لا يحدث ضجة والذي يفعل ما يطلب اليه فعله والذي يحترم من يكبره سنا. وبنتيجة ذلك يصبح الطفل في كثير من الاحيان طفلا خجولا يهرب في وجه التهديد ولا يقاتل عندما يعتدي عليه طفل آخر، يبكي ويشتكي ويلتمس الرحمة عندما يقع في الصعوبات.

ومن الامور التي يتعلمها الاطفال بصورة خاصة العرفان بجميل الوالدين. ونجد ان الخصام بين الوالدين كثيرا ما يتخذ شكل المنافسة في كسب ولاء الطفل والاستئثار بعاطفته. فالطفل مدفوع الى الشعور بانه مدين لوالديه او لاحدهما بكل شيء، والام بسبب قربها من الطفل، لها حظ اكبر في كسبه الى جانبها. فكلما كبر الولد كلما امتعض من شعوره بالدين، ولكنه يقمع هذا الشعور، ثم يقوى هذا الامتعاض في مرحلة المراهقة التي هي اشد المراحل ضغطا وحرمانا بالنسبة الى الفرد العربي، ذكرا كان ام انثى. فالصبي يعتمد على ابيه ويرغب في التحرر من الاتكالية، وهو بسبب القيود الاجتماعية القاسية يتشدد في قمع ميوله الجنسية والعاطفية. وهو لا مكانة له في هذا العمر لانه ما زال يعتمد اقتصاديا على ابيه ويعيش تحت جناحه مجبوراً على الذل والخنوع. وبما ان شعوره بعدم التلاؤم يبلغ القمة في هذه المرحلة فهو مسحوق، بما يشعر به من عجز وتفاهة، ولذلك فما ان يبلغ سن الرشد حتى يكون متعطشا الى ابراز ذاته والى اعتراف الآخرين به والى الحصول على المكانة الاجتماعية والسلطة.

الخجل والشعور بالذنب

ومن اهم الطرق المتبعة في تربية الطفل ضمن عائلات الطبقة الوسطى طريقة التخجيل. لقد اشار العالم النفسي اريك فروم الى فاعلية هذه الطريقة بقوله : « لا شيء اكثر تأثيرا وفاعلية في سحق معنويات الفرد من اقناعه بانه تافه ورديء ».

ان وظائف الطفل البيولوجية، وبصورة خاصة الوظائف الجنسية، تصبح اداة للسيطرة. فالطفل يبدأ يخجل من جسده ومن وظائفه الجسدية وهو يتعلم باكرا الجمع بين وظيفتي التبول والتغوط وعدد من الموانع الاجتماعية القاسية، فهو يدفع قسرا الى تعلم النظافة (toilet training) وذلك قبل نضوج عضلات الافراز بفترة طويلة، مما يؤثر في نمو شخصيته تأثيرا سلبيا قد تكون عواقبه وخيمة. ونجد ان في العائلات الاكثر محافظة تشديدا على الطهارة الجسمانية تؤدي الى تعزيز وعي الطفل بعدم طهارته وبالتالي الى زيادة شعوره بالارتباك في ما يتعلق بجسده.

ان موضوع الجنس موضوع محرم في العائلة، والحياة الجنسية يلفها غشاء من التكتم والسرية، وبالتالي فان تجربة الجنس عند الطفل تتصف بالفوضى والالم والغموض، وفيما يلي حادثة جرت في دمشق في صيف ١٩٧٢ في بيت عائلة مسلمة من عائلات الطبقة الوسطى :

كان طفل يبلغ السادسة او السابعة من عمره يجلس بعد الغذاء مع ضيوف والديه في الاستقبال. كان الوالدان موجودين وكان هناك اطفال من بيت الجيران يلعبون في الطرف الآخر من الغرفة. وكانت

بنت في الثامنة من عمرها تلعب معهم فتقفز وتقع على ارض الغرفة وكان الصبي يحدق اليها، واذا بأبيه يقفز ويصفعه في وجهه صائحا « اخرج يا قليل الحياء، الخ ».

وبالرغم من ان موضوع الجنس هو اقوى وسيلة تجعل الطفل يشعر انه شرير فهي ليست الطريقة الوحيدة لتخجيله من نفسه، فهناك طريقة فعالة اخرى هي الاستهزاء، الذي يرتكز على التخجيل. وهناك تمييز دقيق وواضح بين الشعور بالخجل والشعور بالذنب او الخطيئة. والجدير بالذكر ان الطفل العربي، في عائلات الطبقة الوسطى، يتلقى تربية تجعله يشعر بالخجل اكثر مما يشعر بالذنب، فالدافع الى الخجل هو ان الآخرين يشاهدون ما ارتكبه من عمل سيء لا لأنه يشعر داخليا بالندم على ذلك العمل السيء حاكما على نفسه كما يجب ان يحكم. وفي شروط تربوية كهذه تنعدم القدرة على نقد الذات وادانتها فينشأ مقابل ذلك مجرد رد فعل للضغط والنقد الاجتماعيين. ان الشعور بالخجل يتكون بتأثير ما يتصوره الفرد عن رأي الآخرين فيه اكثر مما يتكون بسبب رأيه في نفسه. فالانسان العربي يقول : « انا خجلان من نفسي » ولكن كلمة انا وكلمة نفسي لا تدلان هنا على شيء واحد فكأن الأنا، بحكمه على نفسه، يعود الى عامل خارجي، بمعنى ان الشعور بالخجل نتيجة اثر خارج عنه. والواقع ان ذلك التعبير يعني فقط : « ارجو المعذرة اذا كنت قد جرحت شعورك ». وليس هناك مجال للقول : » اني اشعر بالذنب وشعوري هذا يعذبني ». ولعل وجود بطل كالبطل الشكسبيري هاملت امر لا يمكن تصوره في المجتمع العربي.

ومن الناحية العملية فالعيب الذي يشعر به الفرد العربي هو « ما يقوله عنه الناس »، بمعنى ان لا عيب في ما لا يراه الناس وما لا

يسمعونه. وهذا ليس فقط تمييزا بين ما يفعله الانسان وما يجب ان يفعله بل انه يفترض موقفا هو موقف الكتمان الذي يتحول في سلوك الراشدين الى عادة اخفاء النوايا والحذر فيما يقوله ومما يقوله الاخرون. وبذلك تصبح اعمال الناس غير ما تبدو عليه، بحيث ان هناك دوما معنى مبطنا ونية مكتومة وراء كل كلمة وكل ايماءة تصدر عن الآخرين.

ان هذا بالطبع يتصل بالاخلاق ولكن اهتمامنا ليس بالجوانب الاخلاقية بل بالنتائج العملية الناجمة عن التكتم في السلوك اليومي. مثال ذلك : عندما تقول الأم لطفلها في مكان عام (حديقة عامة مثلا) ان لا مانع من التبويل هنا لان « ما حدا عم يتطلع »، فانها في الواقع تعلمه التكتم والتخفي، قائلة له بأن لا مانع من فعل ما هو محرم طالما ان عيون الآخرين لا تراه. ولذلك لا يمكن للطفل ان ينظر الى الامور المحرمة نظرة جدية. ومن هذا القبيل فان التمييز بين سلوك ظاهر وسلوك باطن يتخذ الصفة العملية، بمعنى ان وجود مقياس مزدوج للسلوك ليس فقط امرا مقبولا ضمنيا بل هو موضوع تشجيع في هذا الاطار التربوي.

ومن المفيد هنا ان نتساءل كيف يتأثر نمو الأنا الاعلى بهذا النوع من التربية ــ نستطيع مثلا ان نتساءل: هل يتمكن الطفل الذي يخضع للقهر والتخجيل من تحويل القيم الاساسية التي يتلقاها من المجتمع الى حوافز داخلية، ام انه يكتفي باكتساب عادات وتعلم حيل تساعده على تدبير اموره؟

والفرد المتحرر من الضغط الخارجي (من الخوف والاتكال) هل يميل الى التقيد بما في السلوك الظاهر من قيم اساسية ام بما في

السلوك الباطن من قيم عملية ؟ وما هي الشروط التربوية التي تشجع نمو هذا النمط من السلوك او ذاك ؟ وبصورة اخص، الى اي حد يتأثر نمو الضمير الاخلاقي والشعور بالمسؤولية بهذا النمط من انماط التربية الاجتماعية وبتجارب الطفولة المرتبطة به ؟

من الواضح ان نمو الانا الاعلى نموا كافيا يفترض نوعا من القدرة على الشعور بالمسؤولية لكن الطفل الخاضع للتخجيل قد كون في نفسه شعورا بانه ليس مسؤولا في كل حال وان لا مجال للومه على الاطلاق. وكم مرة تقول الأم دفاعا عن طفلها عندما يصفعه والده، لانه كسر قدحا او فشل في المدرسة او ما شاكل، كم مرة تقول « الحق مش عليه »، « هو ما عملها ». واسوة بما يجري في موقف التخفي، فرد الفعل هو « لا لوم علي »، « انا غير مسؤول »، « المسؤول شخص آخر »، بحيث ان الفرد ينظر الى نفسه على انه مظلوم اي انه ضحية الآخرين. وكثيرا ما نجد المتهم في مركز الشرطة، ادخل قاعة المحكمة، يعلن، وان كان بريئا، بانه مظلوم، اي انه يقول « انا مظلوم » بدلا من قوله « انا بريء ». ان كونه بريئا وكونه مظلوما هو، في نظره، شيء واحد، وذلك لان الذات هي الموضوع لا الفاعل، وبالتالي فلا يمكنها ان تكون مسؤولة.

ولان الطفل لا يمكنه ان يلجأ الا للخضوع من اجل الدفاع عن نفسه ضد الغضب والاستهزاء فلا يمكنه ان يعتبر نفسه مسؤولا بل مظلوما، فكيف يمكن للشعور بالمسؤولية ان ينمو اذا كان الفرد يشعر بالعجز شعورا مستمرا ؟ وبما ان الفرد يرفض بصورة لا شعورية السلطة التي تسحقه، فهو يعفي نفسه من المسؤولية مما يؤدي الى غياب النقد الذاتي وارادة العمل والمبادرة في الفعل.

لذلك نجد ان الانا الاعلى، بدون الشعور بالمسؤولية، يبقى كيانا غامضا، وغير تام، اي مجرد مركز لعادات اجتماعية وقواعد شكلية للسلوك، مما يجعل ارتباط الانا بالانا الاعلى ارتباطا ضعيفا. ويبين فرويد كيف ان وصفا كهذا يسهل عملية التطابق (identification) وعملية تكون الجماعات المصطنعة[1] (artificial group formation)

ان الطفل الذي يخضع للاذلال والقمع عليه ان يتحمل سلطة ابيه الى ان يستطيع التخلص منها، فهي سلطة لا قيمة ضمنية لها ويمكن رفضها دون الم او ندم بمجرد انها لم تعد قادرة على فرض نفسها. اما التعويض الذي يحصل عليه الأنا فهو في تخلصه من الضغط الثقيل الذي كان يرزح تحته وبالعثور على مخرج لحاجاته المكبوتة. واما شكل السلوك الذي يتخذه هذا التعويض فهو بالضبط ما يجري بصورة طبيعية عند افراد الطبقات الوسطى في المجتمع العربي، اي السلوك القائم على تركيز الذات والتنافس ونسيان المصلحة العامة واستبدالها بالمصلحة الفردية التي تصبح فوق كل مصلحة.

التعليم

ان التعليم كما يجري في اطار العائلة وخارجها يتميز بصفتين رئيسيتين، فهو من جهة، يقلل من اهمية **الاقناع والمكافأة، ومن جهة اخرى يزيد من اهمية العقاب الجسدي والتلقين.**

ان ضرب الاولاد طريق مقبولة لضبط السلوك، وهذا يتم بأشكال

[1] «Group Psychology and the Analysis of the Ego», **The Complete Works of Sigmund Freud** (London, 1955), Vol. 11, p. 105 ff.

مختلفة لكن اكثرها شيوعا هو الصفعة التي قد لا تكون مؤلمة بقدر ما هي وسيلة اذلال، وهذا ما يفسر فاعليتها. فالصفعة يمكن توجيهها بسرعة ودون سابق انذار، والطفل المعتاد على هذا النوع من العقاب يرفع ذراعه فوق وجهه بصورة آلية عندما يتعرض لاي تهديد. والى جانب كونها وسيلة تأديب، فالصفعة وسيلة اخرى لتأكيد السلطة وفرض الخضوع الفوري، والواقع ان الطاعة في العائلة العربية هي نتيجة الخوف اكثر مما هي نتيجة الحب والاحترام.

ان هذا الشكل من اشكال ضبط السلوك يجعل الطفل يشعر بالعجز وفقدان الحماية. والطفل الذي يلقى معاملة كهذه يعتاد البكاء والنحيب ويكتشف ان عليه، لحماية نفسه، ان يستجدي الرحمة والغفران، وان يبرر نفسه ويهدد ويبكي قدر طاقته ما يمكن. وهنا نجد ايضا ان احترام الطفل لذاته هو الثمن الذي يدفعه لتعزيز سلطة الاب، والسلوك العدواني الذي يتبعه الاطفال الكبار تجاه الصغار ليس مجرد استئساد عليهم بل هو ايضا محاكاة لسلوك الكبار ووسيلة للتفريج عما يعانونه من اذلال. وفيما بعد يصبح تحقير الآخرين طريقة عفوية في توكيد الذات بمعنى ان الفرد يشعر بالرفعة اذا حط من قدر الآخرين باذلالهم او الاستهزاء بهم او التقليل من قيمتهم.

اما التلقين فهو الشكل الاكثر تنظيما من اشكال فرض السلطة وتثبيتها، فهو يجمع بين العقاب والتشريب (indoctrination) وهو طريقة تعتمد على **الترديد والحفظ** بحيث لا يبقى مجال للتساؤل والبحث والتجريب.

والهدف من التلقين هو نقل قيم المجتمع وعاداته الثابتة في مواجهة العالم إلى صميم التركيب الذهني في الفرد. ان الفرد يتلقى

نماذج متكاملة فيحولها الى نمط سلوكي دونما تفهم او نقد، وفيما هو يفعل ذلك يعتاد رؤية الاشياء وتقييمها بصورة تدعم نزعة الامتثال وتضعف طاقة الابداع والتجديد. وبذلك فان طاقات الابداع والتجديد يجري توجيهها نحو اشكال مسبقة في التفكير والتصرف، مما يساعد بدوره على تعزيز نزعة الامتثال.

والتلقين من حيث هو طريقة تسلطية في التعليم يجعل المتعلم يستجيب باكتساب عادة الصم (او البصم)، اي الدراسة والتعلم بالاستظهار. ان ما يدرسه الطفل بهذه الطريقة يحفظه كما هو، بمعنى ان الفرد المتعلم لا يتأثر بموضوع التعلم لانه لا يهتم بفهمه وادراكه بل باستنساخه وحفظه. والتلميذ المجتهد هو الذي يثبت ذاته وينال المكافأة لا بطرح الاسئلة الملائمة بل باعطاء الاجوبة الصحيحة (الملقنة). ان المعرفة في اطار كهذا تصبح بالضرورة معرفة « مجردة » ليس لها سوى علاقة واهية بتجارب الحياة اليومية. انها ذات وظيفة متعالية كجزء من طقوس واحتفالات وترفيه اجتماعي، وبالتالي فهي ليست عملية تطبيقية. وهنا نجد ان التمييز بين المعرفة النظرية والتطبيق هو تمييز متصلب لا وساطة ديناميكية حية فيه، انه تمييز يحافظ على الفصل الموجود عند الفرد بين الفكر والعمل وبين الحلم والواقع. والفرد المتعلم عندما يحول السلطة الخارجية (الاب، المعلم، الرئيس) الى شيء في داخله ينتظر منه ان يستجيب استجابة منفعلة (reflexive) دون تساؤل كما يفعل الاطفال في مدرسة الكتّاب. يتعلم الطفل باكرا جدا كيف يستجيب طوعا للتلقين، فما ان يبدأ بالكلام حتى يجري تدريبه على ترديد الاسماء، كأسماء الاهل والاقارب، وينال مكافأة جزيلة على استجاباته الصحيحة، ثم يجد في

المدرسة الابتدائية وبعدها، ان اسلم طريقة للدراسة واكثرها ارضاء للمعلم هي طريقة الصم (البصم).

ان حياة العربي تبدأ وتنتهي بالتلقين، اما العنصر المشترك بين التلقين والعقاب فهو ان كلا منهما يشدد على السلطة ويستبعد الفهم والادراك، اي ان كلا منهما يدفع الى الاستسلام ويمنع حدوث التغيير. يتعلم الطفل ان يقبل دون اعتراض او تساؤل سيطرة القوي والمتعلم، وهو من خلال ذلك يتعلم اللغو (overcommunication).

ان اللغو يتلاءم بصورة خاصة مع المسايرة الاجتماعية حينما ينطلق الناس في الحوار « الاجتماعي » دون ان يشعروا باية حاجة الى الحوار، كما سنرى فيما بعد. والواقع ان خاصة اللغو الاساسية تظهر جليا على انها تجسيد **للمسايرة،** اي انها في الواقع شكل من اشكال عدم الحوار.

الخلاصة ان هذا الوجه من وجوه التعلم، بما يربطه بالواقع الاجتماعي، يعمل على تعزيز السلطة وتشجيع البصم واستبعاد التساؤل والبحث، كما يعمل على تعطيل طاقة الابداع وتكوين انماط جامدة من التعامل والحوار.

حب المعاشرة

ان العائلة العربية توجه الفرد منذ طفولته نحو الاشخاص اكثر مما توجهه نحو الاشياء، فأول تدريب يتلقاه الطفل هو فن المعاشرة : « قل مرحبا لعمو »، « قل مع السلامة جدو » الخ. وهكذا فان الطفل ينمو ويكبر دون ان يجد نفسه وحيدا في اي وقت من الاوقات، لانه دائما محوط بالناس. فما ان يستيقظ من النوم حتى يجد من يتسلمه

ويأتي به ليجتمع بالآخرين، واذا اتفق له ان يسترسل في النوم فان والدته تقلق عليه وتقول لاحد من افراد البيت : « روحي شوفي اذا كان الولد فاق من النوم او بعد ». اما اذا كان مستيقظا (وهو يلعب فرحا او يرقب العالم من حوله في هدوء) فسرعان ما يؤتى به الى مكان الاجتماع بحيث تستولي العائلة على حياته الخاصة منذ ذلك الحين.

ان تدريب الطفل على المعاشرة يتم باشراكه في الحديث وفي الحفلات الاجتماعية، وكلما كبر الطفل ازداد تدريبه لتمثيل الادوار الاجتماعية. انه يعتاد قبول نفسه دون انقطاع كفرد من الجماعة، كما يعتاد النظر الى بقائه وحيدا كأمر غريب او شاذ. وهكذا يدفع الطفل الى القبول بحاجة توكيد نفسه في اللقاءات الاجتماعية على انها امر طبيعي. وبالتالي فهو يشرع في محاكاة الكبار في ايماءاتهم وطريقة حديثهم، فالطفل الذي يبقى صامتا يصبح هدفا للاستهزاء لانه لا يشترك في الحديث فيقولون عنه : « مسكين هلولد له تم ياكل وماله تم يحكي ».

وبالرغم من ان الاطفال العرب يشعرون عامة بالخجل امام الغرباء. فلا عجب ان يعتادوا في خلال نموهم على التهذيب والدماثة والتملق. وبما انهم يبدأون بالتعامل مع الناس في سن مبكرة سرعان ما يتعلمون فن ارضاء الآخرين ومسايرتهم، بحيث ان الطفل المرضي عنه هو الذي يعرف كيف يتفوه بالقول المناسب امام الاقرباء والضيوف.

واذا سلمنا مع لسلي هوايت (Leslie White) « ان المعرفة هي القدرة على التصرف بصورة ملائمة في وضع معين» فان اثمن معرفة في بيئة كبيئتنا هي معرفة اصول التعامل مع الناس. فالقول ان سمير « ولد شاطر » يعني انه يعرف كيف يتدبر امره مع الاخرين، اي كيف يتعامل مع بيئته المؤلفة من والديه واشقائه واقربائه وجيرانه.

ولكن الطفل العربي اذا وجد في بيئة اخرى، في الطبيعة مثلا، شعر بالارتباك (الا اذا ترعرع في القرية) لان ما ينقصه بالضبط هو القدرة على التعامل مع الاشياء.

ان التدريب على فن المعاشرة هو في الواقع تدريب على المسايرة، والمسايرة تعني حرفيا ان يسير المرء مع الاخر ويرافقه ويتلاءم معه. والمسايرة من حيث فن التلاؤم والتسوية ذات وظيفة اجتماعية تؤدي من جهة الى تخفيض توتر التفاعل الاجتماعي، ومن جهة اخرى الى تقوية حب المعاشرة. ان وجهها الايجابي هو في تلك الدماثة والضيافة اللتين يتصف بهما مجتمعنا ككل، انها وضع اجتماعي يسحر الغرباء لانها تزيد من لذة التفاعل الاجتماعي وتدعم الميل نحو التسلية والتآنس او المؤانسة.

ولكن للمسايرة مساويء اجتماعية عديدة، فمما لا شك فيه ان العمل الاجتماعي الذي تسيطر عليه روح التسلية والمجاملة لا يمكنه ان يؤدي الى نتيجة فعالة. فمعالجة المشكلات المطروحة معالجة فعالة امر صعب التحقيق عندما يكون التعامل الاجتماعي مطبوعا بالمسايرة والادب الشكلي. والواقع ان المسايرة تضع عراقيل هائلة في طريق العمل والتنفيذ، بحيث يتعذر التعبير عن الخلافات او حلها عند لقاء الناس وجها لوجه وبحيث أن المعارضة المكبوتة تستمر في الغليان، فتصبح القضايا مرهونة بالاشخاص انفسهم، وهكذا فان التمييز، في الحياة العامة بين الناس وافكارهم يبقى تمييزا مستحيلا.

والمسايرة اكثر من مجرد سلوك تقليدي، فهي تفترض موقفا ذهنيا يتهرب من المواجهة المباشرة ومن معالجة المشكلات في جذورها، موقفا يفتش عن الحلول في تسويات موقتة. والطفل اذ يتعلم كيف

يتكيف مع الناس يفعل ذلك لا لتعلم ما يلائم من اسلوب الحديث والتصرف وحسب بل ايضا لتكييف ذاته نفسيا مع فن التعامل الاجتماعي.

ولا شك في ان الافراط في المعاشرة الاجتماعية يولد حساسية مرهفة تجاه الناس، فالطفل، الذي يحاول بطبيعته لفت الانتباه اليه، يتحول الى ممثل. انه يصبح واعيا لذاته ويقظا، ولكن ما يهمه ليس معنى الكلمات، بل كيفية تمثيل دوره بصورة عامة. كذلك نجد ان المتكلم في حديث عادي او في مناقشة خاصة او عامة يميل الى توكيد ذاته بالاستحواز على انتباه الآخرين واعجابهم. واسوة بالطفل الصغير الذي يسمع درسا يتقنه فان المتكلم الراشد حريص على انتباه كسب اطراء الناس سواء بهز الرأس دليلا على الموافقة او الابتسام دليلا على الاعجاب او بالتعليق بصورة مؤاتية. ومن الشائع جدا في اللقاءات الاجتماعية ان يتبارى المتكلمون وان يقاطع بعضهم بعضا. ان العدوانية في حالات كهذه تنبع من حاجة الفرد الى توكيد ذاته، وبالتالي فهي تعزز ما في المناقشة من « تمثيل ».

إن المستمع الصبور لا مكان له في اطار كهذا، فهناك انتقاص لدور المستمع لان الصمت يعتبر تقصيرا وبالتالي نقصا في المكانة الفكرية « وقوة الشخصية ».

ان الدور الذي يمثله المتكلم يتصف الى حد كبير بردود الافعال التي يتخيلها المتكلم عند المستمعين. فالافكار والايحاءات تتبدل بحسب رد الفعل المفترض من جانب المستمعين، والاطراء الذي يبديه هؤلاء لا يعكس مجرد استجابة موضوعية للافكار، بل حكما على قيمة المتكلم الممثل ككل. وبالتالي لا يمكن للنقد ان يكون موضوعيا بل هو

سلاح هجوم، ذلك ان ما هو اقل من الاطراء الشديد يعتبر نوعا من الذم والاستخفاف، وهكذا نجد بوضوح ان المسايرة، في مجتمعنا، لا تسيطر على اللقاءات الاجتماعية فحسب بل ايضا على المناخ الفكري للمثقفين.

ان الرياء الذي ترتكز عليه المسايرة يؤدي بصورة تلقائية الى تغذية الروح العدوانية التي تظهر خاصة في **الاستغابة**، اي في النيل من سمعة الآخرين. وبالاضافة الى ان الاستغابة وسيلة للتفريج عن العدوانية المكبوتة، فهي تدعم الميل الى المعاشرة. فالطفل يتعلم الاستغابة عندما يلاحظ ان والديه وغيرهما من الكبار ينالون من سمعة اشخاص يعرفهم، وهو، اذ يتعلم كيف يخاطب الناس، يتعلم ايضا كيف يستغيبهم. والواقع ان الاستغابة هي الوجه الآخر للمسايرة، ونتيجة من نتائجها الحتمية.

يمكن الاستنتاج من ذلك ان التوافق الظاهري الذي تحققه المسايرة يؤدي في الواقع الى توتر مبطن، وبدلا من ان يتيح الناس لخلافاتهم وتناقضاتهم ان تنحل بصورة صريحة وواضحة نجدهم يكتمونها ويجعلونها تتأزم في نزاع باطني، ولذلك فان التفاعل الاجتماعي لا يجري الا على مستوى المجاملات. اما سائر مستويات التفاعل الاجتماعي فهي كلها مستقطبة حول العداء والمخاصمة والنزاع.

ان الميل الى المعاشرة ما هو الا نمط حضاري آلي في خدمة الامتثال الاجتماعي. وكما رأينا سابقا، فالطفل يجري تدريبه على الانتماء الى الجماعة عن طريق الرضوخ الى ارادتها، وقبل كل شيء الى ارادة ابيه الذي يعبر عن هذه الارادة ويجسدها. وإذا كان في البيت

اشخاص آخرون يحاولون تمثيل دور الاب، فالطفل يصبح عندئذ فريسة دوافع فوضوية في نفسه عليه ان يصارعها ويقمعها. ومن الواضح انه في ظروف كهذه يحتاج الى كثير من الحظ ومن طاقة الاحتمال ليبني في ذاته استجابات اجتماعية فعالة ومنسقة وشخصية متزنة قادرة على مجابهة العالم ومخاطره.

ان الميل الى المعاشرة يجمع بين الناس في علاقات التسلية ويفرق بينهم في علاقات العمل. واسوة بالاغتياب والرياء فان سوء الظن هو جزء لا يتجزأ من الموقف الناتج عن الميل الى المسايرة والمعاشرة. انه الموقف القائل بأن « الناس والاشياء ليست كما تبدو ».

ونجد ان الفرد، في التعامل الاجتماعي، لا يثق عفويا في كلام الآخرين لانه يعي نوعية الستار الاجتماعي الذي يختبئ الجميع وراءه وهذا ما يؤدي الى تغليب الشك والاستغابة في ما يتعلق بنوايا الاخرين ودوافعهم، كما رأينا سابقا.

وباستثناء حالات الصداقة الحميمة فان الفرد لا يقبل الاخرين على الشكل الذي يظهرون فيه ولا ينظر الى تعهداتهم على انها ملزمة. كذلك من الصعب الاجابة بالرفض في لقاءات الناس وجها لوجه، وحتى في اللقاءات العملية، كما انه من السائد النظر الى تعهدات الآخرين نظرة استخفاف، كما في القول « هذا حكي بحكي » اي انها كلمات لا تلزم صاحبها بالفعل. كذلك نجد ان القول « ان كلمته لا يمكنها ان تصبح كلمتين » (كلمته ما بتصير تنتين)، اي ان الوعد ملزم، هو في الواقع اشارة الى الاستثناء بالنسبة الى القاعدة المتعارف عليها ضمنا.

وكما ذكرنا سابقا فان ما يقال عن الفرد وما يعلمه هو او ما

يظنه من قول الاخرين فيه يمثل دورا حاسما في تعيين مواقفه تجاه الآخرين وتجاه نفسه. ان سوء الظن ينبع من وعي الاغتياب، وبما انه يتعذر التمييز بين الصواب والخطأ فيما يقال عن شخص من الاشخاص فان موقف الفرد يصبح موقفا ازدواجيا. فهو اما ان يلقى ثناء ومديحا واما ان يذم ويحط من قدره، وفي كلتا الحالتين تنشأ عنده صورة مشوهة عن رأي الآخرين فيه. ونتيجة ذلك، من الناحية النفسية، ان الفرد مدفوع الى القبول بعالم الاشخاص والاشياء ليس كما يراه هو، بل من خلال اطار كلامي كثيرا ما يكون بعيدا عن الحقيقة. انه يبث في واقع التجربة معاني واهدافا لا تظهر بوضوح في ذلك الواقع. ومما لا شك فيه ان شعور الفرد نحو الآخرين (محبته لهم او كرهه اياهم) هي عوامل تسهم في عملية التشويه، الا ان جذور هذه العملية موجودة في الازدواجية الاساسية التي يجري التعبير عنها في تفاعل الفرد مع الآخرين.

ان التعامل مع اشخاص من خارج العائلة هو، بالنسبة الى الطفل، تعامل مع غرباء، ولذلك فان سوء الظن الذي يتعلمه في محيط العائلة يصبح قاعدة لتعامله في المجتمع، وذلك مع شيء من المبالغة. وهكذا فان الفجوة القائمة بين العائلة والمجتمع تزداد سوءا، فما ان يدخل المرء في الحياة الاجتماعية حتى يشعر بعدم الاطمئنان، كما يشعر بانه في تعامله مع الآخرين دائما مخدوع او مستغل ومعرض للانسحاق اذا لم يتخذ موقف الهجوم والسيطرة. ان تجربته عن العالم الخارجي تجربة تخيب آماله فتعيده الى كنف العائلة، وهذا ما يجعل العائلة تقوي قبضتها عليه عندما يكبر فتمنعه من تحقيق الاستقلال الذاتي، وبالتالي من تنمية وعيه الاجتماعي ونضوجه النفسي.

ومما يسهل مهمة العائلة هذه ان المجتمع في تركيبه القائم يضطهد الفرد ويلفظه اذا ما استقل عن العائلة او العشيرة او الطائفة، والواقع ان سوء الظن الذي اشرنا اليه من حيث هو موقف نفسي ونمط من انماط السلوك يؤدي الى دعم العلاقات الاجتماعية القائمة على العائلة والعشيرة والطائفة وهي التي ينبثق منها هذا الموقف.

وهكذا فان التحالف بين المجتمع والعائلة يبدو كوسيلة اساسية تلجأ اليها الثقافة الاجتماعية المسيطرة لضبط التغيير والمحافظة على استقرار النظام الاجتماعي الذي هو بدوره مبني على النمط السائد في تركيب العائلة وفي توزيع الثروة والسلطة والمكانة الاجتماعية في المجتمع العربي.

الإتكاليّة ، العَجز ، التَهرُّب

سأتناول في هذه الدراسة بعض نتائج التربية البورجوازية — الاقطاعية في تكوين شخصية الفرد، مع العلم ان هذا الوصف لا ينطبق على المجتمع ككل بل على الشخصية البورجوازية ـ الاقطاعية، تماما كما ان القيم والقواعد التي تتحكم في السلوك البورجوازي — الاقطاعي لا يمكن ان نعزوها للجماعة ككل، وذلك لانها تنبع قطعا من الثقافة الطبقية. فالثقافة البورجوازية ـ الاقطاعية لا يمكنها ان تطبع الثقافة القومية بطابعها الخاص الا بقدر ما تكون عامة الشعب مشاركةفي قيمهاوتطلعاتها وخاضعة لايديولوجيتها. الا ان ثقافة الطبقات المسيطرة لا يمكنها ابدا ان تطابق ثقافة الجماهير مطابقة كلية، بمعنى انها قد تتعايش واياها في حركة استقطاب متعارضة ولكن دون ان تحل محلها.

ومن الواضح ان تغيير الشخصية البورجوازية ـ الاقطاعية، التي هي، بالمعنى الدقيق للكلمة، حصيلة المجتمع البورجوازي — الاقطاعي، لا يمكنه ان يتم الا بتغيير ذلك المجتمع وتركيبه الطبقي. واذا توخينا فهم ديناميكية تغيير كهذا والشروط النوعية اللازمة لتحقيقه فلا بد لنا من اجراء تحليل نفسي ـ فلسفي لبعض الجوانب الاساسية في السلوك الاجتماعي، مع العلم ان خصائص **الاتكالية**

والعجز والتهرب هي من صميم السلوك البورجوازي ــ الاقطاعي.

والواقع ان الاتكالية والعجز والتهرب تجسم شعورا بورجوازيا ــ اقطاعيا نموذجيا هو الشعور **بعدم المقدرة**. فالاستجابة العفوية المباشرة تجاه التحدي والصعاب نجدها في قول الفرد : « لا اقوى على ذلك »، بمعنى ان الاحجام عن مواجهة الصعاب والاستعانة بالغير دون حاجة فعلية اليه والانسحاب والتهرب هي من صلب تلك الاستجابة. وهذه، في الاساس، هروب من المواجهة ورفض للالتزام ومحاولة لتحاشي النزاع والتنصل من المسؤولية. ذلك ان الفرد قد يقدم، بصورة كلامية، على الدفاع عن الشرف الشخصي او القومي حتى آخر نقطة من دمه ولكنه في الواقع مستعد للمساومة على ذلك الشرف من اجل الحفاظ على نفسه وذويه وبعض المنافع.

ان روح الطبقة البورجوازية ــ الاقطاعية، كما تبدو ظاهرا خلال شعاراتها وحكمها واشعارها، هي روح ثقة وقوة وايمان بالمستقبل. ولكننا، اذا نظرنا اليها داخليا خلال واقع الطبقة البورجوازية ــ الاقطاعية، نجد انها روح خضوع ومساومة بالاضافة الى شعور بالتفاهة وبالعجز عن مواجهة العالم مواجهة فعالة.

ــ ١ ــ

ليست الاتكالية خاصة من الخصائص العرضية بل لها اصول اجتماعية وثقافية عميقة. مثال ذلك ان تربية الطفل في بيئة تتميز بالمنافسة تؤدي الى اكتساب الطفل اخلاق المنافسة، في حين ان البيئة التي تحدد سلفا مركز الفرد ودوره في المجتمع تجعل الفرد، ميالا الى

الخضوع والاتكالية. كذلك نجد، في كلتا البيئتين، ان عملية تحويل القيم الاجتماعية الى حوافز داخلية تؤدي الى تعزيز نمط السلوك المفضل في المجتمع، وهذا بالضبط هدف نظام تربية الطفل.

يتعلم طفل العائلة البورجوازية ـ الاقطاعية درسين اساسيين من خلال تعامله مع ذوي السلطة، كالاب والمعلم والعم والخال : اولا **كيف يقمع عدوانيته تجاه السلطة** وثانيا **كيف يتحاشى مواجهتها**. وهذا بالضبط ما يؤدي الى الاتكالية والخضوع.

لقد رأينا سابقا كيف تتخذ، السلطة في العائلة في معظم الاحيان، شكلا سلبيا وبنوع خاص شكل العقاب الجسدي. فالطفل، اذ يتلقى صفعةعلىوجهه اوعلىعنقه، يشعر بالاذلال وينزع عفويا الى الرد بالطريقة ذاتها. لكنه سرعان ما يدرك ان المعاملة بالمثل ستؤدي الى صفعات اشد والى مزيد من الاذلال وهو، بالتالي، يتعلم كيف ينفس عن كربه بالبكاء، بمعنى انه يكبت غضبه ويرضخ.

كذلك نجد ان روح الاقتحام يجري خنقها عند الطفل بوسائل اخرى. فهم يعلمونه ان « يتأدب »، وان يجعل سلوكه مطابقا لنمط متشدد، كما يعلمونه ان يتحاشى النزاع في تعامله مع الاطفال الآخرين. مثال ذلك ان الطفل الذي يضرب طفلا آخر ينال عقابا شديدا، في حين يرثى للطفل المضروب وينال مكافأة. وهكذا يتعلم الطفل باكرا ان روح الاقتحام لا تجدي نفعا وان روح الخضوع تنال المكافأة، بمعنى انه يتعلم كيف يجد طريقه بطلب المساعدة واستثارة العطف بدلا من العمل بارادته الخاصة. مثال ذلك ان الطفل يتظاهر بالم مفرط للتعبير عن ارتفاع بسيط في حرارة بدنه، وهذا موقف يتعزز بما تعبر عنه الأم من شعور مفرط بالقلق والذعر، بحيث انها تلبي

الرغبة في استدرار العطف تلبية فورية تؤدي بدورها الى تعزيز اتكالية الطفل. فالأم تكافئ الطفل على استدراره العطف والظهور بمظهر الضعيف، وليس للقسوة مكان في نمط تربيتها.

اما استدرار العطف عند البالغ فيتم على شكل استجداء، وهذا نمط تعنى به الثقافة البورجوازية ــ الاقطاعية كجزء لا يتجزأ من علاقات السلطة بجميع اشكالها، وهو يؤكد علاقَة التسلسل بين الرئيس والمرؤوس. فكل طلب يصبح نوعا من الاستجداء، بحيث ان صاحبه يعترف، من خلال تعابيره وموقفه، بسخاء المعطي وبالتالي بعجزه هو واتكاليته. ونجد، في الاحوال العادية، ان الفرد، اذ يلجأ الى طلب المعونة، يقوم بوصف حاجته بقدر ما يشدد على عجزه. ولا بد، في حالات الشدة، من ان يؤدي ذلك، من الناحية الاجتماعية، الى ان يستهلك الفرد في ندب سوء حظه طاقة تفوق ما يستهلكه في معالجة وضعه السيء.

عندما تبلغ الاتكالية، حدا كهذا، تؤدي بصاحبها الى التهرب. فعادة التوكل على الآخرين تقوى في النفس عادة التهرب والانسحاب، وهو وضع اسهل من وضع المجابهة.

ــ ٢ ــ

الطفل في المجتمع البورجوازي ــ الاقطاعي يتعلم عدة طرق لتحاشي الاتصال المباشر بابيه عندما يتعامل معه. فاذا احتاج الى شيء منه لجأ الى طرف ثالث (امه او عمه او خاله). ذلك انه يحاول تلقائيا بكل ما لديه من وسائل ان يتفادى ما في المواجهة المباشرة من موقف

منفعل وخنوع مقرون بالاحترام وبالتالي ما ينجم عن نلك من الم واذلال.

وهكذا فان الفرد، في اطار العائلة والمدرسة وبعد نلك في اطار المجتمع، يجد نفسه دوما في مواجهة مع من يكبرونه سنا ومن هم، بالتالي، ارفع منه مقاما، بحيث يمارسون سيطرتهم عليه. انه يشعر بنفسه ضعيفا، كما يشعر ان آخرين هم النين يتخذون القرارات بالنيابة عنه فيقولون له ما يجب ان يفعله ويفكر فيه. ثم ان مظهر التهنيب المفرط عند الفرد الذي تلقى تربية « حسنة » تخفي غضبا مكبوتا ونوعا من التفكك اللنين لا يظهران علنا الا في حالات النزاع حينما ينهار التهنيب الشكلي. كنلك فان الفجوة بين الاعمار من شأنها ان تضعف امكانية المواجهة الواضحة الصريحة وان تقلل من احتمال التفاهم المتبادل، كما نجد للشعور الداخلي بالعجز انعكاسا في الشروط الموضوعية التي ساعدت على نشوئه .

ان الاكبر سنا يتمتعون بمكانة خاصة،لا فرق أكانوا يتحلون بمزايا معينة ام لا . فكونهم اكبر سنا يعني ان معرفتهم يجب ان تكون افضل من معرفة غيرهم وان « ما يقولونه » يجب ان يطاع، بحيث ان الطاعة تتخذ شكل سلوك الاحترام والتهنيب الشكلي والخنوع، كما ان احترام « سلطة العمر » تستمر في سن الرشد فيشعر المرء دوما بان هناك من يفوقه مكانة بسبب عمره. وعندما تدعو الحاجة الى اتخاذ قرارات، حتى بشأن امور بسيطة، نجد الفرد يعجز عن اتخاذ القرارات بنفسه، اذ عليه ان يطلب رأي ابيه او رأي احد « الناضجين »، بحيث انه يختبر في سن الرشد العلاقات نفسها التي عاشها في طفولته والمرتكزة على الاتكالية.

الثقافة تحاول ان تفرض عليه في سن الرشد انواع الرقابة التي فرضتها عليه في سن الطفولة. فالافراد، وان بلغوا اشدهم واصبحوا مستقلين، يتصرفون بعد ذلك كالاطفال في حضور ابائهم. فلا النضوج ولا الذكاء ولا الاستقلال الاقتصادي يمكنها ان تحرر الفرد من سيطرة السلطة المشخصة التي اختبرها في طفولته.

وعندما يأخذ المرء بعين الاعتبار ان اكثر من خمسين بالمئة من السكان هم تحت الثامنة عشرة يدرك عندئذ الى اي مدى يتحكم النظام القائم في حياة مجتمعنا. فالسيطرة الاجتماعية التي يمارسها الجيل القديم هي سيطرة تامة، كما انه ليس للشبان دور مستقل يمثلونه. فهم يخضعون باستمرار لكبت شديد من الناحيتين العقلية والجنسية، ويظلون مربوطين بسلطة ابوية الشكل، بحيث انهم يبقون في ظل الكبار على الصعيد السياسي كما على الصعيد العاطفي والعقلي.

هكذا يتلقى الشباب تربية تجعلهم متفرجين يوكلون الشؤون العامة لمن يكبرونهم سنا. ان هذا النوع من التربية ينتج، في المجتمع البورجوازي ــ الاقطاعي، افرادا منسلخين عن مجتمعهم لا يشعرون تجاهه بالتزام ولا يتحسسون الا بما يتعلق مباشرة بانفسهم. فالشأن العام في نظرهم امر مجرد وهم يشعرون بالعجز عن التأثير فيه. ولذا فمن الطبيعي عندهم ان يوكلوا الامور العامة بما فيها السلطة السياسية الى « الكبار » الذين يمارسونها فعلا.

ان هذا الموقف لا يظهر في وضع انفعالي فحسب بل ايضا بشكل عاطفة لا اجتماعية متصفة بسلبية مطلقة. وفي ما يلي حادثة تشير الى هذه الناحية بوضوح : سألنا امرأة متقدمة في السن، وهي من عائلة مسلمة من الطبقة الوسطى، السؤال التالي : « لنفرض ان طفلا من

اطفال الجيران قد ضاع، فماذا تفعلين وماذا يفعل الجيران الآخرون ؟» فاجابت : « ما شي. ما حد بيتحرك ». ثم استشهدت بقول مأثور : « الولد يلي مش من ضهرك كل ما جن فرحلو ».

ـ ٣ ـ

ان عدم المشاركة في السلطة السياسية لا تشكل قضية بالنسبة لاعضاء المجتمع البورجوازي ـ الاقطاعي. وما ان تسوء الاحوال حتى نراهم يعلنون براءتهم بصورة عفوية موجهين الاتهامات الى الحاكمين.

فالثقافة البورجوازية ـ الاقطاعية تقدم وسائل تغطية العجز والتهرب من المسؤولية، وذلك عن طريق المواقف الشكلية التي تؤدي الى اخفاء الواقع وجعله اكثر استساغة. فالتمسك بالشكليات فيه تأييد للمظاهر وتقاس فعالية ذلك بقدرة الشكليات على دعم صورة مقبولة عن الواقع، مع العلم ان اللغة المستعملة بطريقة كهذه هي لغة التمويه التي تتمكن من تغيير المظاهر دون التطرق الى الوقائع ذاتها، اي ان تجعل الواقع غير المقبول يبدو اكثر قبولا (مثال ذلك ان الوجود **المهدد**، في ظل توسع استعماري، يصبح موقتا وجودا **طبيعيا**، بحيث تحل الاستجابة الكلامية محل الاستجابة العملية).

كذلك فان المعالجة الشكلية تحول النزعة العملية الى نوع من **التحصين النفسي**. فيأخذ العجز والتهرب مظهر الحذر ويصبح لسان حال الفرد ان الاشياء ستتغير لانها لا يمكنها ان تبقى كما هي وان الاسوأ قد مر، وما شاكل من الافكار. ان الاستمرار في الوجود باي

ثمن يصبح اذن اسمى الاهداف العملية، كما ان فقدان السلطة لا يكون مصدرا للحرمان، مما يجعل شعور عدم المقدرة ينتقل من الفرد الى قوة غامضة خارجة عنه. وهذا يساعد على تفسير ما يلي، وهو ان اوضاعا وطنية فيها اقصى انواع الذل والالم لم يكن لها، على ما يبدو، سوى تأثير ضئيل في احترام الفرد العربي لنفسه. ونجد حتى في صميم الكارثة الوطنية ان مفهوم الشرف الفردي لم يتأثر بشيء لان الفرد قد اعتبر نفسه غير مسؤول خارجا عن المسألة كلها.

ونتساءل الآن كيف يجري التعبير عن كل ذلك على الصعيد النفسي ؟ من مواقف التهرب النموذجية ان يتخذ المرء وضع المتنبىء بكارثة : بمعنى انه عندما يعبر عن شكه في نتيجة خطة من الخطط او عمل من الاعمال المصممة او ما شاكل فهو يؤكد، في الواقع، انه لن يشارك في الخطة او انه لن يلتزم بالعمل، بمعنى انه، باشارته الى حتمية الفشل، يزيل الحاجة الى الاشتراك بالعمل فيبدو الامتناع عنه امرا حكيما.

ومن الطرق المستعملة في التهرب واعفاء الذات من المسؤولية طريقة تثبيت الشيء بعد حصوله : « مش هيك قلتلك »، الخ ـ وهذا يعني ان صاحب القول لا علاقة له بما جرى وما يجري، وانه لن يلتزم بالامر لان المسؤولية مسؤولية طرف آخر. واذا ذهبنا بموقف كهذا الى حدوده القصوى وجدنا له تعبيرا في القول المأثور : « فخار يطقش بعضو »، بمعنى ان المرء لا يبالي بشيء طالما انه بخير، وليذهب كل شيء الى الشيطان.

كذلك فان تبرير التمنع عن العمل وتحمل المسؤولية يتم بتضخيم المصاعب والعقبات التي تعترض سير اي عمل او فعل

ممارس. مثال ذلك ان هناك ما يشبه اللذة في وصف قوة العدو لا من اجل محاربته بل، بصورة لا شعورية، من اجل تبرير عدم محاربته. وهكذا فان موقف العجز يتعزز بواسطة التنبؤ به وتأكيده مسبقا.

والواقع هنا ان الفرد في مجتمعنا يجد نفسه وحيدا ضد سائر الناس. فموقف كهذا، في مجتمع صناعي، قد ينتج من روح منافسة تعبر عن ذاتها في الاخلاق الفردية التي يتصف بها النظام الرأسمالي الفردي النزعة. اما في مجتمع كمجتمعنا سابق للمرحلة الصناعية فالموقف ذاته متأصل في نظام قربى ما زال وثيق الارتباط بالروح القبلية والتنظيم شبه الاقطاعي. وبالتالي فان الفردية في نظامنا البورجوازي ـ الاقطاعي، بعكس مثيلتها في النظام الرأسمالي الليبرالي، تظهر على شكل فوضى ذاتية موسومة بنقص في الروح الاجتماعية. هذا مع العلم ان روح الفوضى متأصلة في البورجوازي ـ الاقطاعي وانها تؤدي الى دعم اتكالية الفرد ونزعته الى التهرب من المسؤولية. فالفرد، في هذا النظام، يجد نفسه في وضع الاتكالية لا لانه مرتبط بالمجتمع بل لانه يعتبر نفسه فوق المجتمع وخارجه. واستقلاله المزعوم يؤدي في الواقع الى تدعيم تبعيته الحقيقية ويقوي شعوره بالعجز عن الممارسة ونزعته الى التهرب والانسحاب من ميدان الفعل والمسؤولية.

ـ ٤ ـ

ان العبارة المألوفة في لغة المحادثة « انا ما بخصني » او « انا ما دخلني » تختصر في الواقع موقف عدم الالتزام الذي نشهده في

مجتمعنا البورجوازي ـ الاقطاعي ولكن من المهم ان نعرف اين يبدأ اهتمام المرء واين ينتهي. فبالنسبة الى الانتقاد والتهجم نجد الفرد مهتما بكل ما في المجتمع من قضايا، بمعنى انه منغمس كليا في حياة المجتمع طالما ان الامر لا يتعدى مستوى قراءة الجرائد والاستماع الى الراديو اما بالنسبة الى الالتزام العملي فنجد ان التزام الفرد بحياة المجتمع هو في حده الادنى.

ومن الممكن هنا ان نميز بين اهتمام « مباشر » واهتمام « فعلي »، بمعنى ان الاول مرتبط بعلاقات التفاعل الاجتماعي (الثرثرة وما شاكل) والثاني بعلاقات الاستمرار في الحياة (المصلحة المادية). كذلك فان شعور الفرد بعجزه الكلي عن التأثير في الاحداث في المجتمع وبأنه موضوع لهذه الاحداث بدلا من ان يكون محركا لها يسهم في زيادة المشاركة الكلامية اللافاعلة وبالتالي يوسع التناقض بين القول والعمل، حتى ان ارادة العمل او الممارسة تصاب بالانحلال ويصبح التلفظ بالاقوال هو الممارسة نفسها.

وهناك عنصر آخر يعيق استجابة المشاركة والالتزام عند الفرد. فالطفل في المجتمع البورجوازي ـ الاقطاعي يخضع لتجربة لها تأثير كبير في تكوين شخصيته، وهي ان الكبار يحدون من فضوله ولا يمنحونه اي تشجيع. فهم اذا ما اضجرهم باسئلته يقولون له : » اخرس » او « ما بخصك »، وهذا يؤدي به في النهاية الى ايقاف التساؤل والعزوف عن العمل والاكتفاء بالثرثرة قدوة بالكبار.

ان الفرد في المجتمع العربي ينخرط في الحياة الاجتماعية لتأمين مصالحه الخاصة والمحافظة على سلامته. فالقول العربي المأثور : « امش الحيط الحيط » يدعو الى اتباع سلوك حذر والاستغناء عن

روح المغامرة. ان الفرد يواجه الحياة بصورة دفاعية ويتحمل الامها بهدوء وكبت داخلي : **ان المجتمع يقضي ان تحل روح الخضوع محل روح الاقتحام وروح المكر محل روح الشجاعة وروح التراجع محل روح المبادرة.** وتبعا لذلك فان القوي المسيطر لا يواجهونه مواجهة مباشرة بل يستعينون بالله عليه، كما في القول : « اليد يلي ما فيك تكسرها بوسها وادعي عليها بالكسر ». اما مقارعة الخصم فلا فائدة منها اذا كان قويا، كما في القول المأثور : « العين ما بتقاوم المخرز ». انهم يواجهون فقط من هم اضعف منهم، وفي هذا المجتمع يأكل القوي الضعيف في تدرج محتم من فوق الى تحت.

— ٥ —

ان شعور العجز يتخذ اشكالا متنوعة في نمط السلوك السائد في المجتمع البورجوازي ـ الاقطاعي، ولعل اهم هذه الاشكال هو ما نجد تعبيرا عنه في موقف الجبرية، اي الايمان بالقضاء والقدر. والجبرية، في جوهرها، **نوع من عدم التبصر وعجز عن التهيئة للمستقبل.** وبالرغم من تحسبه الشخصي للامور فان الفرد في المجتمع البورجوازي ـ الاقطاعي لا يفسح للمستقبل سوى مجال محدود وغامض، كما في القول : » مرقني اليوم وغرقني بكرا ». ونجد ، في سلوك كهذا، ان رغبات اليوم تجري تلبيتها على حساب حاجات الغد وان الاتجاه هو نحو الاشباع لا نحو التثمير والانتاج. ومن الامثلة على ذلك اننا لو اقترحنا على احد ان يكتب وصيته لظن اننا نريد له الموت.

ان الثمن الذي يدفعه المجتمع البورجوازي ـ الاقطاعي من

اجل التلذذ بالحاضر هو عجزه عن ضبط المستقبل. فالسلوك المبني على افتراض « ان الغد يهتم بنفسه » قد يكون امرا مفيدا من الناحية النفسية، ولكن نتيجته العملية هي انعدام السيطرة على المستقبل. ذلك ان العقلية البورجوازية ـ الاقطاعية تنظر الى الزمان نظرة اسطورية. فالماضي « مجيد » والمستقبل فيه « مكافأة الجنة ».

ونجد، في اطار نظرة كهذه، ان التغيير الاجتماعي يجري وصفه باشكال خاصة. فهو يتم فجأة، وبصورة غير منتظرة، ودون ان تكون له اسباب ظاهرة. اما مفهوم السياق فمفهوم غامض وكذلك حلقاته المرتبطة بعضها ببعض ارتباطا ضروريا. واما مفهوم المنظومة فهو ايضا غامض، بحيث ان لا علاقة ظاهرة بين البنية والوظيفة، اي ان لا وجود لطريقة ضرورية او نوعية تعمل بها منظومة معينة.

كذلك نجد، على مستوى التجربة المباشرة، ان عالم الاستهلاك والاشباع يبدو منفصلا عن عالم الجهد والعمل. فالشروط اللازمة للانتقال والتغيير، اي **التخطيط والتنظيم والتنمية**، تبدو على شكل مفاهيم جامدة وغير مرتبطة بعضها ببعض. وليس من المدهش، في المجتمع البورجوازي ـ الاقطاعي، ان تؤدي المواقف السلوكية الى اعاقة مقتضيات المعرفة بصورة مستمرة.

ولو اردنا ان نذهب ابعد من ذلك في وصف خصائص العقلية البورجوازية ـ الاقطاعية لوجدنا ان فيها افتراضا اساسيا هو ان العقل البشري، في حد ذاته، عاجز عن الفهم وانه لا يستطيع ان يدرك ما في صنائع الله من اسرار. فقوة **الله** وقوة **الطبيعة** قوتان ساحقتان ولا يمكن للانسان ان يقاوم ايا منهما. وهكذا نجد ان الظلم الناتج من تصور الله و**الطبيعة** يدعم الخضوع للظلم الناتج من الانسان. فعبارة

« انا لا شيء... انا لا استطيع ان افعل شيئا... » لا تعبر فقط عن حالة نفسية ناجمة عن الشعور بالعجز والحرمان بل ايضا عن نظرة الى العالم تحدد وتحصر دور الفرد وتطلعاته. والواقع ان لموقف كهذا جذوره في اوضاعنا الحياتية كما في نمط معين من انماط تفكيرنا.

ان انسان مجتمعنا البورجوازي ـ الاقطاعي لا يحتاج الى مزاج ديني للقبول مثلا بقول القرآن : « لا حول ولا قوة الا بالله ». فالانسان قليل الشأن، والدين يعلمه يوميا انه قد خلق كائنا ضعيفا «وخلق الانسان ضعيفا» الفرد يعيش في عالم يعرف مسبقا انه لا يستطيع السيطرة عليه وان مصيره فيه امر محتوم («كل من عاش مات وكل من مات فات وكل ما هو آت آت»). وفي النهاية كما في البداية فان لله حقا على كل شيء: «انا لله وانا اليه راجعون». ومن الواضح ان ايديولوجية كهذه تغذي استمرار السلطة القائمة في المجتمع وتدعم هيمنتها على اعضائه.

ـ ٦ ـ

يتعلم الفرد انه يستطيع تدبير اموره اذا قبل بوضعه الراهن ولم يتمرد عليه. فهو يكتشف ان ظهوره بمظهر الضعيف يكسبه نوعا من القوة، وذلك لان الثقافة التي ينتمي اليها تكافئ الضعف بقدر ما تعاقب التحدي. فالعبارة « مسكين مش طالع بئيدو » ليست مجرد عطف على الفرد الفاشل بل ايضا تبرير لفشله. والفشل ليس مرفوضا في المجتمع طالما يرضى صاحبه بوضعه ويخضع لمتطلباته. ذلك ان التصدق والشفقة فضيلتان يعنى بهما في كافة المجتمعات المبنية على

التسلط، بحيث يتعلم الفرد ان **الحط من قدره هو الثمن الذي يجب ان يدفعه ليتدبر امره في المجتمع الذي يعيش فيه.**

ان الشعور بالعجز جزء لا يتجزأ من بنية الشخصية في افراد المجتمع البورجوازي ـ الاقطاعي، كما ان الهروب من العجز او على الاقل تبريره او تغطيته امر يحققه باعادة تنظيم الواقع، اي برفض رؤية الواقع كما هو واللجوء الى نوع خاص من العقلانية، يمكننا ان نسميها « عقلانية سحرية ». انها عقلانية مشوهة لانها ليست متجهة كليا نحو الواقع، ولكنها في الوقت ذاته ليست سحرية بالمعنى الكامل، اي بمعنى الهلوسة، وذلك لانها لا تقتصر على العوامل اللاعقلية بل تفسح مجالا للتفسير العقلاني. ومن حيث هي تبرير نجد انها غير متفككة وهي، عمليا، متماسكة الشكل.

ان العقلانية السحرية تجعل الفرد يفترض، بصورة لا شعورية، ان ذاته والواقع يخضعان لقوى غير التي يمكنه ان يعيشها بالتجربة المباشرة، بمعنى ان هناك في التجربة العادية عنصرا خارج التجربة المباشرة يتخطى العقل. وفي الحادث التالي دلالة على ما نقول: صباح ذات يوم اكتشف احد الشباب الفلسطينيين، وهو خريج الجامعة الاميركية في بيروت، ان سيارته التي يوقفها عادة مقابل بيته قد سرقت. فلجأ فورا الى الاعلان في الصحف عن مكافأة مالية لمن يقدم له معلومات تساعد على استرجاع السيارة. (كان هذا سلوكاً عقلانياً) وبعد مضي يوم او يومين لم يجد خلالها السيارة لجأ الشاب الى طريقة اخرى فاستعان باحدى العرافات (كان هذا سلوكا سحريا)، فقالت له ان سيارته قد اخذت الى مدينة صور وانه اذا توجه توا الى هناك

وجدها سالمة.[1]

ان العقلانية السحرية، بهذا المعنى، تتضمن ثنائية ذهنية بحيث ان عنصرا سحريا يختلط بالعقلانية السوية، اي ان ما هو واقعي يصبح عقلانيا ولكن بصورة غير كاملة وما هو عقلاني ينظر اليه جزئيا كشيء يتخطى العقل. ومن الممكن تماما ان مواجهة واقع قاس تجعل مجموعة الرغبات قوية الى درجة يصعب التغلب عليها بعقلانية الحياة اليومية. فالعامل اللاعقلي الذي يسهل مواجهة الواقع ويجعله مقبولا يقحم نفسه بشكل من الاشكال في مختلف انواع التبرير. ولذا فلا عجب، في ايام الشدة، ان تكون هناك نزعة الى ايجاد تفسيرات تتخطى المعطيات المباشرة وان تصبح هذه النزعة ضرورة نفسية ماسة.

كذلك نجد، على الصعيد العملي، ان العقلانية السحرية تسهل العثور على كبش فداء (على التبرير والتخلي عن المسؤولية). فالمرء لا يشعر ابدا انه مسؤول مسؤولية تامة، كما انه لا يشعر ابدا بسيطرة تامة لانه يضع اللوم على قوى تفوق قدرته. وهذا ما يقوي عنده نزعة اللجوء الى آليات الدفاع النفسي، كوضع المسؤولية على الغير ولوم الآخرين والاستشهاد بسلطة عليا، الخ...

وفي اوضاع كهذه بالضبط يظهر جليا ان التعلم الاولي، اي في مرحلة الطفولة الاولى والاندراج في المجتمع، يؤثر اكثر من التعلم الثانوي (المراحل اللاحقة) في تحديد السلوك. ومهما كان مستوى ثقافة الفرد فهو يبقى تحت تأثير بنية التعلم الاولى، بحيث يكون ميل

[1] سافر الشاب الى مدينة صور في سيارة عمومية ولكن لم يَجد سيارته هناك. وبعد بضعة ايام عثر البوليس عليها في احدى ضواحي بيروت.

العالم وحامل الدكتوراه الى العقلانية السحرية مساويا لميل اي فرد آخر في المجتمع.

ـ ٧ ـ

ان في ثقافة المجتمع البورجوازي ـ الاقطاعي نزعة مميزة تدفع الى **الشك في الذات والحط من قيمتها**، وهي نزعة يمكنها ان تكون شديدة جدا وان تتخذ اشكالا متعددة.

ان الشعور بالنقص نتيجة حتمية من نتائج تربية الطفل المبنية على التخجيل والعقاب البدني والحد من الحرية. اما الفرد الراشد فلا تظهر ثقته بنفسه في اثناء اللقاءات الشخصية الا بصورة سطحية. ذلك ان الفرد لا يشعر بالطمأنينة والارتياح الا في جو الألفة او عند تعامله مع الأدنى منه مكانة او مع الصغار او النساء من افراد عائلته. اما في تعامله مع الغرباء فهو خجول، مرتاب، مفرط في التهذيب. وهو حريص على كسب العطف والحصول على الموافقة، كما انه يحترم رغبات من هم ارفع منه مكانة على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي. انه يظهر بحاجة الى المساعدة او مستحقا للشفقة وهذا، اساسا، وضع استجداء. انه بصورة عفوية يتخذ امام القوي موقفا طيعا حريصا على كسب الرضا. اما موقف الثقة وتوكيد الذات فلا يعود الى الظهور الا عندما يجد المرء نفسه مجددا في جو اليف، اي مع اناس من مستوى مماثل او اقل.

ونجد، من الناحية الخارجية، ان مظهر الثقة بالذات هو امر ظاهري مكتسب اجتماعيا، وهو يتم بصورة عفوية او على شكل نماذج

مهيأة سلفا لا يشارك الفرد في صنعها الا قليلا من حيث التجديد او الاصالة. انها حركات وتعابير مقبولة لا تعبر عن شخصية فردية بقدر ما تعبر عن شخصية جماعية تتبلور بتأثير الطبقة الاجتماعية والعوامل الاقتصادية المرافقة لها.

ان البورجوازي ـ الاقطاعي رجل اناني بخيل محب للامتلاك، اي **بعكس الصورة التي ينسجها عن نفسه**، بمعنى ان القيم المثالية التي تحتويها هذه الصورة، من سخاء وكرم وما شاكل، ما هي الا قيم فارغة بمعظمها. ذلك ان الحياة اليومية، بالنسبة الى البورجوازي ـ الاقطاعي، ما هي الا معركة ضارية ليس الشرف والكرامة من ثمارها بل بالاحرى البقاء والثروة والسلطان.

ولا عجب من وجهة نظر المجتمع ككل، ألا تستطيع الطبقة البورجوازية ـ الاقطاعية الا القيام بالاعمال التي تخدم مصالحها المباشرة او على الاقل المنسجمة مع هذه المصالح. كذلك فان العلاقات الاجتماعية القائمة تحدد بدورها السياسة الاجتماعية بمحتواها واهدافها، وبشكل لا يمكنه الا ان يدعم النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي الراهن ويحافظ عليه.

وبالرغم من ان العقلية البورجوازية ـ الاقطاعية هي، اساسا، عقلية محافظة فهي لا تستبعد النزعات الاصلاحية، حتى « الثورية » منها، وذلك لان هذه النزعات على نوعيها لها جذور في مواقف نخبوية. وتبقى الحياة السياسية نتيجة مقررات واعمال تنبع من حكم متسلط لا ديموقراطي كما ان التغيير السياسي يبقى نتيجة تآمر او انقلاب لا نتيجة ارادة شعبية حرة.

اما بالنسبة الى البورجوازي ـ الاقطاعي « المتعلم » و

« المثقف » فالنظام القائم، ايا كان تركيبه الاجتماعي، هو ميدان لنشاطه الفكري وربحه المادي. فهو، في حياته العملية، يلائم نفسه مع التركيب الاجتماعي، بغض النظر عن امكان وجود اية نزعة ايديولوجية معارضة، يهيئه لتمثيل دور المتعاون مع النظام، وهو دور لا يستطيع تبديله الا بتغيير نهج حياته، اي بالتنازل عن وضعه الاجتماعي وبتضحية ما فيه من امتيازات. لكن مفهوم التضحية، وبنوع خاص التضحية الذاتية، هو مفهوم غريب عن الشخصية البورجوازية ـ الاقطاعية. فالفرد يحرص على ان يعيش حياته في طمأنينة ورفاه وهذا، بالنسبة اليه، **قيمة نهائية لا انتقاص منها.** وبالرغم من ان التزامه الفكري قد يدفعه، برغبة مخلصة، الى خدمة المبادئ التي يؤمن بها، فان نهج حياته والتركيب النفسي الموافق له يمنعانه من ذلك. فهو دائما ينتهي الى تبرير ذاته وتبرير سلوكه المناقض لاقواله ومعتقداته.

ـ ٨ ـ

ان كون الفرد « متعلما » يجعله صاحب وضع ودور خاصين في المجتمع البورجوازي ـ الاقطاعي. « فالتعلم » في حد ذاته يضفي مكانة اجتماعية على صاحبه وهو قيمة مستقلة بغض النظر عن محتواه. مثال ذلك ان الحصول على لقب الدكتوراه هو هدف اجتماعي بحد ذاته.

ومن الممكن ان يكون البورجوازي ـ الاقطاعي « المتعلم » انسانا لم يتغير. فكثيرا ما نجد ان « التعلم » لا يترك اثرا يذكر في

اسس تركيب الشخصية. **وهذا ما يبدو جليا في المواقف التالية : العجز عن التملك الكامل من اللغات الاجنبية، وفقدان الانضباط العلمي، والعجز عن ادراك دقائق المعاني والتعبير عنها، والعجز عن مواجهة المشكلات بصورة منهجية.** وبالرغم من ان اسس تركيب الشخصية تبقى دون تغيير فان مطالبة المتعلمين بمكانة خاصة تجد لنفسها دعما قويا لمجرد انهم « متعلمون ». ومن نتيجة ذلك ان العادات الذهنية التقليدية والسلوكية القديمة تكتسب مكانة خاصة لصدورها عن « المتعلمين »، وبالتالي تسهم في زيادة الضعف الاجتماعي العام.

ولعلني لا اغالي في القول انه كلما ازداد البورجوازي ـ الاقطاعي « علما » اصبح اقل قدرة على القيام بالمهمات الاجتماعية وازداد انانية. وطالما بقيت قوالب الشخصية الاساسية كما هي فان التغيير الجذري يصبح مستحيلا، بحيث تنتقل نزعة التغيير الى مستوى آخر فيبقى التفكك الاجتماعي في ازدياد مستمر. ولذلك فان « المتعلمين » لا يمكنهم ان يشكلوا قوة **مستقلة** تعمل على احداث التغيير. فالقواعد والقيم التي يمثلونها في حياتهم العملية هي القواعد والقيم التي يمثلها النظام القائم في تركيبه وايديولوجيته التي ترفض التغيير الجذري.

— ٩ —

ان مكامن الضعف في المجتمع الاقطاعي ـ البورجوازي لا يمكن فهمها، في اشكالها الاجتماعية والنفسية، بدون ادراك علاقاتها

مع الغرب. فموقف البورجوازي ـ الاقطاعي تجاه الغرب هو في الاساس موقف ازدواجية سببها، من جهة، شعور بالنقص، ومن جهة اخرى، اعجاب حاسد بكل ما هو غربي، بمعنى ان الاول يفسر نفور البورجوازية ـ الاقطاعية من اوروبا واميركا، خاصة من الناحية السياسية، وان الثاني يفسر بدوره النزعة الى التطابق مع الغرب.

وهكذا نجد ان « نهج الحياة » الغربي له مفعول سحري في نظر البورجوازي ـ الاقطاعي المتعلم، بحيث ان اية مقارنة بين هذا النهج والنهج الوطني او الاشتراكي هي غير ملائمة وغير مرغوب فيها. انه يعتبر الغرب متفوقا ويحاول ان يبين بان مجرد كون الغرب مدينا لحضارة العصور الوسطى الاسلامية يجعل العرب المعاصرين مشاركين في الثقافة الغربية المعاصرة.

كذلك نجد، من الناحية السياسية، ان الاعجاب بالانظمة الاجتماعية الغربية اعجاب لا تمييز فيه، بحيث انه يقدر النظام البرلماني البريطاني ـ الاميركي كما يقدر الدكتاتورية الفاشيستية. فعدوه، اسوة بعدو البورجوازي الغربي، هو « الشيوعية »، وذلك بالرغم من تقبله « للاشتراكية » و التعاون مع الاتحاد السوفياتي.

كذلك تنبع رغبة البورجوازي ـ الاقطاعي في الغرب من المنافع المادية التي يمكن للغرب تقديمها له. فالغرب ليس فقط « ثقافة » و« علما » بل ايضا بضائع وكماليات. ونجد، في هذا الاطار بالذات، ان القمع الجنسي في مجتمعه يعمل على تقوية رباطه بالغرب. ذلك ان جاذبية الغرب، بالنسبة اليه، هي في سهولة الاشباع الجنسي بقدر ما هي في الحصول على العلم والثقافة.

ـ١٠ـ

وفي المجتمع البورجوازي ـ الاقطاعي نقاط ضعف اخرى هي : التمزق الاجتماعي والسياسي، والخصام السياسي، والاستقطاب الطبقي، والانقسامات الطائفية والعرقية. ان الطبقة البورجوازية ـ الاقطاعية، كي تستطيع المحافظة على مكانتها كطبقة حاكمة تعمل على ابقاء العلاقات الاجتماعية الراهنة كما هي، مدافعة عن الوضع الايديولوجي السائد. والواقع ان نمط سيطرة الطبقة البورجوازية ـ الاقطاعية في مختلف الانظمة الاجتماعية في العالم العربي تضع حدودا للتغيير، وذلك بتحديدها ما هو « حسن » وما هو « سيئ » بالنسبة الى المجتمع. ونجد، في النهاية، ان الشرط المسبق للاحتفاظ بالسلطة، في كل المجتمعات البورجوازية ـ الاقطاعية، هو الابقاء على تركيب هذه السلطة المرتكز ضمنا على تجميد التركيب الطبقي وعلى تأمين خضوع الاكثرية من الناحيتين السياسية والاقتصادية (اي خضوع ٩٠ الى ٩٥ بالمئة من السكان إلى خمسة او عشرة بالمئة)

ثم ان العقلية البورجوازية ـ الاقطاعية لا تقر للجماهير الفقيرة بوجود خاص. واذا استثنينا المجردات الوطنية والدينية نجد ان افراد الطبقة الحاكمة لا يشعرون بتعاطف مع الفقراء والضعفاء ولا يستطيعون التطابق معهم بسبب نوع التربية وبسبب الوضع الاجتماعي كذلك فان الفقر الاقتصادي والجهل والمرض والتعاسة

تبدو كلها، في نظر العقلية البورجوازية ـ الاقطاعية، على انها امور **اخلاقية ـ دينية**. فالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي يتصف بها النظام السائد (والافكار التي تحدد هذه العلاقات) تبدو كعناصر مألوفة من عناصر واقع معطى، بمعنى ان البيئة الاجتماعية امر « طبيعي »، وان العالم المادي والعالم الاجتماعي هما شيء واحد وانهما، بالتالي، يخضعان لشروط وقوانين واحدة.

والى يومنا هذا وحتى في اكثر البلدان تقدما من الناحية الاجتماعية، حيث ادت الاصلاحات الزراعية والاجتماعية الى خطوات تقدمية مهمة، نجد ان الفلاحين ما زالوا الى حد ما موضوع احتقار واضطهاد. وبالرغم من ان الحادثة التالية قد لا تكون الا تعبيرا عن موقف فردي فانها، مع ذلك، دليل على العقلية البورجوازيـــة ـ الاقطاعية.

عند وصولنا الى عاصمة عربية في صيف عام ١٩٧٢ دعينا الى منزل احد موظفي الدولة، وهو رجل متوسط العمر يقيم في حي الطبقة العليا. وكان ان علق احد الحاضرين على اكتظاظ الحي بالسكان وتخريب معالمه في السنوات الاخيرة وقد عزا ذلك الى تكاثر السكان السريع. لكن صاحب البيت اجاب بقوله : « كلا ». لا علاقة لتكاثر السكان بذلك. انهم « الوحوش الفلاحين » الذين انتقلوا الى هنا وسببوا كل ذلك ».

والواقع ان لا شيء كهذه الملاحظة يدل على التناقض الجذري وبالتالي على الضعف الكامن في المجتمع البورجوازي ـ الاقطاعي، وهو ان الاكثرية المحرومة لم تحتل بعد مكانها الشرعي في المجتمع.

الوَعيٌ وَالتغيير[٧]

لماذا نتوقع جميعا ان يكون اولادنا اقدر واشد ذكاء من سائر الاولاد ؟ ولماذا تختلف النتيجة دائما عن توقعاتنا، يبلغون سن الرشد فلا يختلف وضعهم عن وضع اقرانهم ذكاء وكفاءات. ولا يمتازون عنهم الا في ما يختلف الافراد بعضهم عن بعض في الطبع والميول والعادات ؟

يعود ذلك، كما سنرى، الى تجربة الفرد طفلا ضمن العائلة والى خبرته بالغا في المدرسة، وشابا في المجتمع. ولا شك ان ما نعتبره في الطفل ذكاء حادا او مقدرة متميزة كثيرا ما تكون صفات للفرد في طفولته، لكنه يفقدها من جراء التربية التي نفرضها عليه، والمعاملة التي نعرضه اليها والتي تقتل سريعا شعلة الذكاء الطبيعية في نفسه، وتقضي على القدرات الفطرية فيه. وما ان ندخله المدرسة والمجتمع حتى يكون استعد نفسيا لان يتقبل الافكار والاساليب الاجتماعية السائدة، فينسى احلامه وتتبعثر قدراته، ويرضخ لارادة الاجيال السابقة التي تجدد نفسها وتفرض سلطتها من خلال العائلة والمجتمع. وما عملية التطبيع الاجتماعي، من المهد الى اللحد، الا استمرار لعملية الاستعباد التي يفرضها الجيل القديم على الجيل الجديد. وفي تعبير آخر، اننا نحرم اولادنا من مواهبهم، ونحد من

مقدرتهم، لاننا نسعى بغية جعلهم على صورتنا ومثالنا كما فعل اباؤنا فجعلونا على صورتهم ومثالهم. والتحالف الذي يجابهه كل طفل هو تحالف العائلة والمجتمع وهو يكاد ان يكون تحالفا لا يقهر.

واذا كان الامر كذلك فكيف لنا ان نحدث تغييرا في المجتمع ؟ فالمجتمع لا يمكن تغييره الا بتغيير العائلة، والعائلة لا يمكن تغييرها الا بتغيير المجتمع، والاثنان مترابطان بشكل لا يقبل التفرقة.

من هنا كانت اهمية الادراك الذاتي، **والمعرفة النقدية** والوعي الاجتماعي ، فهما وادراكا وعملا، في معالجة هذه المعضلة.

ومن هنا كانت العملية النقدية الاساسية التي تجب علينا ممارستها في هذه المرحلة : نقد الفكر الغربي لاستنباط الطرق السليمة التي يمكننا اتباعها للتغلب على عوامل التمويه الكامنة فيه، ولهضم القوى الايجابية التي ينبثق منها.

والخطوة الاولى في هذه العملية هي رفض النموذج الغربي الذي حذت حذوه اجيالنا المثقفة، منذ بدء اليقظة في اوائل القرن الماضي، ووضعته مثالا اعلى لكل علم وفن ومعرفة في العالم.

ان هذا النموذج الغربي ينبثق من مجتمع يختلف عن المجتمع الذي تصوره ويتصوره مثقفونا، وهو يعبر عن قيم واهداف غير تلك التي يعتقدونها، فهذا المجتمع موبوء وهو ذو قدرة هائلة على نقل عدواه الى المجتمعات النامية، وما الفوضى والتضارب والتمويه التي عانيناها، ولا نزال نعانيها، الا احدى نتائج هذه العدوى.

ما الذي نريد تجّنبه في هذا النموذج الغربي ؟

يجب قبل كل شيء فضح ظاهرة الخبل الكامنة في صميمه. عبر نيتشه عن هذه الظاهرة بلغة الفلسفة والشعر، واشار اليها فرويد بلغة

التحليل النفسي وعلم النفس، وكشف عنها ماركس بلغة النقـد الاجتماعي والجدلية التاريخية، واتفق جميعهم على ان هذا المجتمع الغربي لا يقوم فقط على الاستغلال والقهر والعنف بل ايضا على مقدرة هائلة للكذب والتمويه على النفس وحجب الحقيقة عن الذات.

ولعل اكبر تعبير عن هذه المقدرة هو النزعة المثالية في انماط التربية والتعليم الغربي. فالطفل ينشأ على القيم المثالية ـ المحبة، التعاون، الصدق، الكرم الخ ـ التي يتعلمها لفظيا في البيت والمدرسة، لكنه سرعان ما يكتشف تلقائيا، من خلال تصرف والديه واقرانه والافراد الذين يتعامل معهم في المجتمع، ان هذه القيم مجرد « مثل » لا ارتباط مباشر لها بالحياة الواقعية والسلوك العام. فينصرف الى نمط من السلوك يفرضه عليه المجتمع من حوله، يستند الى العدوانية والتنافس والخداع والقهر، دون ان يكون لهذا التناقض (بين الواقع والمثال) اي تأثير في نمط حياته او في معتقده. فهو في سن الرشد يسلك سلوك الذئب نحو اخيه الانسان، وفي الوقت ذاته لا يتخلى في كلامه وتخيله عن قيم المحبة والاخوة التي يسمعها يوم الاحد في الكنيسة وينساها يوم الاثنين في السوق والشارع.

الا ان هذا التناقض لا ينحصر في مجرد حالة نفسية عند الافراد يمكن تغييرها ذاتياً على الصعيد الفردي، بل يتجسد موضوعيا في علاقات المجتمع والقوى المسيطرة فيه. ان النظام الاجتماعي والاقتصادي يفرض وضعا نفسيا ذهنيا معينا في الافراد، كشرط اساسي لاستمرار هذا النظام ونموه. ان التقدم الفائق، الذي حققته المجتمعات الغربية في حقول الثقافة، رافقه كبت فردي وقهر اجتماعي، غير من شخصية الفرد والجماعة في المجتمعات الغربية فاصبح

الانسان في تركيبه النفسي، وفي علاقاته الاجتماعية، غيره (في طبيعته) لو كانت حياته خالية من الكبت الداخلي والقهر الخارجي اللذين فرضتهما شروط التقدم والازدهار الغربي، واصبح، كما قال ماركس، مغتربا (alienated) عن نفسه وعن عمله وعن الآخرين، ومحروما من انسانيته، كما قال نيتشه، ومريضا بعصاب مزمن يحرمه السعادة الحقيقية في الحياة كما قال فرويد.

في هذا النموذج تقتطع قيمة الحرية في انواعها مكانا متميزا وتظهر كأنها تجسدت في العلاقات والانظمة والحياة الغربية. فالحرية الفردية كما جسدها الغرب لنا تظهر كأنها هدف وقيمة نهائية في كل المجتمع، وتبدو الديموقراطية كما حققتها المجتمعات الاوروبيـة والاميركية الشمالية كأنها نظام لا مثيل له في التاريخ الا من ضمن التراث الغربي.

لقد ترعرعنا نحن المثقفين العرب، على مثل هذا الكلام دون تساؤل او تمحيص. فتمت عملية تمويهنا وصرنا نرى الوقائع من خلال الفكر المثالي الغربي (الذي كان يناقضه فكر واقعي في الغرب لم نتعرفه ولم ينقل الينا). ان يقول المرء مثلا (كما في امكان الفكر النقدي ان يقول) «ان الحرية الفردية كذبة كبرى في الولايات المتحدة» ولا وجود لها، او « ان النظام السياسي في الولايات المتحدة ليس نظاما ديموقراطيا بل يخضع لارادة طبقة حاكمة »، هو بمثابة كفر بمعطيات مسلم بها.

المعرفة النقدية

لا يستطيع المجتمع، الذي يرمي الى تغيير ذاته النجاح في هذه

العملية دون ان ينفذ اولا الى عملية معرفة الذات. فالمعرفة الذاتية هي الشرط الاساسي للتغيير الذاتي، في الفرد كما في المجتمع. ولا تكون هذه المعرفة مجرد معرفة نظرية بل معرفة نقدية قادرة على اختراق الفكر السائد والنفاذ الى قلب القاعدة الحضارية التي ينطلق منها سلوكنا الاجتماعي، وينبع منها فكرنا وقيمنا واهدافنا. والوعي الصحيح هو الوعي النقدي القادر على كشف الواقع وتعريته واظهار قاعدته الحضارية. ولا يمكن تغيير الواقع الا بكشف النقاب عن حقيقته، وما عملية الكشف هذه الا عملية المعرفة النقدية الهادفة الى تغييره.

وفي مجتمعنا، منذ بداية عصر النهضة، غلبت المعرفة الدفاعية والفكر « الدفاعي » على المعرفة النقدية والفكر النقدي. فاخذ مثقفونا يرسمون لنا صور تاريخنا وحضارتنا ومجتمعنا في شكل تبريري، في وجه سيطرة الغرب ونفوذه، واصبح هدف المعرفة درء الخطر عن الذات، بدلا من معرفة الذات وتفهمها. وبذلك تحجر الفكر النقدي منذ البداية، وبدلا من ان يأخذ خط التفهم والتحليل اخذ خط التفسير والتبرير. من هنا تميز الفكر العربي المعاصر بخروجه عن خط المعرفة العلمية (معرفة الذات والنقد الذاتي) واندفاعه في متاهات تجريدية، وتهربه من مجابهة الواقع وكشفه.

ولا بد من القول ان الفكر يتخذ الطابع والاتجاه اللذين تقررهما مرحلة تطور المجتمع ووضعه المادي ـ الحضاري. وفي حين يدعم الفكر النظام السائد او ينقده (ويتجاوزه)، فان الظروف التاريخية التي ميزت هذه المرحلة من تطور المجتمع العربي فرضت عليه اتجاها دفاعيا افقده القدرة النقدية، وقوى فيه نزعة المسايرة والتجريد اللاعلمي. ونتج عن ذلك ان تصور المجتمع لذاته وتفهمه لتاريخه

وحضارته، اتخذا شكلا مبهما ومغلوطا اختلطت فيه الحقيقة التاريخية بالمخاوف والتمنيات والاحلام. من هنا كان تفهمنا لواقعنا تفهمايرتكزعلى الوهم والعاطفة لا على العقل والحقيقة العلمية، وكانت كل محاولة لازالة الوهم واصلاح الخطأ تقاوم بشدة لارتباطها، من جهة، بحاجات نفسية متأصلة، ومن جهة بمصالح اجتماعية وسياسية قائمة.

التمويه

ان مفهوم (mystification) مفهوم في غاية الاهمية لا بد من استيعابه اذا اردنا التوصل الى المعرفة النقدية الصحيحة. وهو مفهوم يستعمل في علم النفس ويعني حجب حقيقة شيء ما، او واقع ما، بمختلف الطرق والوسائل. وتبدأ عملية التمويه في البيت حيث تغرس وتستمر في المدرسة، ثم يمارسها المجتمع في مؤسساته وعلاقاته كافة. وبواسطة التمويه تتمكن الثقافة الاجتماعية المهيمنة في المجتمع من ان تفرض على اعضائه نظرتها وقيمها واهدافها. ولا يقتصر التمويه على حقول الايديولوجية السياسية والدينية والاخلاقية وحسب، بل يتعداها الى الحقول العلمية والفلسفية. فيثبت اسلوب البحث العلمي والتعليم والتجريدات الفكرية بتقسيم حقول البحث اجزاء واختصاصات لا علاقة بينها، ويصبح العالم والمتعلم صاحبي مهنة وتخصص بعيدين عن واقعهما اليومي، وفي الوقت ذاته راضخين للقوى المسيطرة فيه.

ان الفرد، والحال هذه، لا يستطيع الاعتماد على رأيه، او النظر الى الامور باستقلال فكري بعيدا عن آراء الآخرين. انه سجين

الافكار والآراء التي تأتيه من خارج، وهو لا يثق برأيه او بنظره بل يتقبل رأي غيره، خصوصا رأي من يعتبرهم اعلى منه منزلة او معرفة او نفوذا. بذلك يبتعد الفرد عن حقيقته، ويصبح مسيرا للقوى والمصالح المهيمنة في المجتمع حوله.

ليس الا الطفل من يرى، في سنواته الاولى، الناس والعالم على حقيقتهم دون تمويه او تورية. لكنه سرعان ما يخضع لعملية التمويه بواسطة ابويه ومعلميه واقرانه، فيرى الناس والعالم من خلال افكارهم ومفاهيمهم، وفي اطار قيم وعلاقات تحدد له هويته وهوية الناس، وتفسر طبيعة العالم، وتركز مكانته بين الناس، وتفرض عليه دورا تجاه نفسه وتجاه المجتمع لا يستطيع تغييره. وتعبر عملية التمويه عن نفسها سلوكيا في تجسيد العلاقات الفكرية (reification) في سلوك يقبل الامر الواقع كما هو دون تساؤل. والتمويه هو الذي يصنع الوعي الخاطىء الذي يجعلنا نرى العالم من خلال نظارات تصنعها ثقافتنا الاجتماعية والواقع المسيطر فيها، فندعم القوى التي تسيطر علينا وتستغلنا ونرفض بملء ارادتنا سبيل التحرير والانعتاق.

من هنا كانت نظرتنا الى نفسنا والى تاريخنا والى العالم نظرة خاطئة تقوم على ما تدفعنا الى رؤيته المصلحة المهيمنة، من سياسية واقتصادية واجتماعية، وعلى الحاجة النفسية الى تعويض الشعور بالنقص. ان التوصل الى نظرة علمية تستطيع ان تتجاوز المصالح الجزئية التي يقوم عليها الواقع الاجتماعي والسياسي، وان تتغلب على الشعور بالنقص والخيبة، يحتاج، كخطوة اولى، الى رفض التمويه واستعادة الثقة بالذات وذلك بامتلاك الادراك النقدي والمعرفة الذاتية.

ان القول ان الناس درجات في الفهم، وفي مقدرتهم على المعرفة والعلم، كما في المناصب والمراكز، وان العلم ملك عند البعض، والجهل حالة طبيعية عند الكثيرين، وان المعرفة عملية تتطلب الوقت الكثير، والجهد الكثير، ولا يقدر عليها الا القليلون، ان هذا القول هو جزء من عملية التمويه. فاكثر الناس قادرون على تجاوز الوعي الخاطىء والعودة الى علاقات اجتماعية تقوم على وضوح الرؤية للاشياء. ولو لم يكن الامر كذلك لما كان ثمة امل في التغير والتحرر الاجتماعي، ولبقي التاريخ كابوسا مظلما لا حلم فيه ولا يقظة.

يبدأ جدار التمويه بالانهيار عندما يحصل في المجتمع تحرك يؤدي ببعض افراده الى التساؤل حول المعطيات الاساسية المسلم بها في المجتمع. ويتشكل رد الفعل نحو هذا التساؤل اشكالا مختلفة، ففي القرون الوسطى اعتبر هذا التساؤل كفرا والقي بمن تفوه به الى النار، اما في الازمنة الحديثة فانه اعتبر تحديا للدولة والقي بمن قال به في السجون.

ان انهيار جدار التمويه لا يؤدي مباشرة الى انبثاق الوعي وانتشار المعرفة النقدية. فالفترة الانتقالية، التي تمر فيها كل المجتمعات في سيرها من مراحل السبات التاريخي المحافظ الى مراحل التجديد والتغيير والتحديث، تتميز بظاهرة الفوضى. ففي هذه الفترة تطغى الفوضى على كل مظاهر الحياة في المجتمع، في اخلاقه وقيمه وسلوكه كما في مدنه ومدارسه ومؤسساته. وبرغم ان القيم والعادات والانظمة المتوارثة قد تتعرض في هذه الفترة للهجوم المباشر او غير المباشر، فان هذا الهجوم لا يرمي الى التحطيم او الهدم، اذ تقدم هذه الفترة ستارا تحتمي وراءه قوى التغيير والانتقال، فتسير عملية

التغيير والتجديد بمهمتها دون مجابهة القوى المحافظة مجابهة صدامية. وما الفوضى التي نرى ملامحها الفكرية في التعبيرات المختلفة للوعي في مجتمعنا الا انعكاس للفوضى التي نرى تجسيدها في الاسس والعلاقات الاجتماعية حولنا.

وانني استعمل كلمة فوضى عمدا كي اعبر عن الصفتين الاساسيتين اللتين تميزان عملية التغيير الاجتماعي التي يختبرها مجتمعنا، وهما ضخامة القوة الموضوعية المتوافرة في مجتمعنا لعملية التغيير، واستقلالها عن اية ارادة ذاتية موجهة في هذه الفترة.

ان عملية السيطرة على القوة الاجتماعية الفاعلة في المجتمع، وتسييرها في اتجاه مرتبط بارادة ذاتية موجهة بحيث تصبح الفوضى، التي نختبرها يوميا في حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية، حركة خلاقة وبناءة قادرة على تطوير المجتمع ونقله الى صعيد انساني اعلى، ان عملية السيطرة هذه تحتاج الى الوعي المتغلب على التمويه، والقادر على المعرفة النقدية. فتصبح الفوضى قوة اجتماعية تنبثق من صميم المجتمع الممزق لتعبر عن نفسها في نظرية شاملة مرتبطة بارادة واعية وقادرة.

المعرفة الذاتية

لا يمكن الارادة الذاتية ان تكون قاعدة في المجتمع اذا كان مصدرها فقط منابع خارجة عن المجتمع. فالاخذ بالنظريات والمفاهيم الواردة من الخارج يتعذر ان يؤدي الا الى التعمية والفوضى اللتين نعانيهما حاليا. حتى العلم الطبيعي المستورد لا يصبح علما حقيقيا الا اذا استوعبه الفكر الذاتي، وعبر عنه باسلوبه الخاص ولغته

الخاصة فاصبح وسيلة مستقلة للمعرفة والادراك. ان المعرفة، في اشكالها، لا تصبح معرفة حقة الا عندما تمتلكها الذات الاجتماعية، فتصبح تعبيرا عن واقعها وعن امكان تجاوز هذا الواقع. ان كل علم وفن وفلسفة تبقى وسيلة للتمويه والكبت ما دام شكلها مستوردا تعرض وتعلم في المدارس والجامعات كما تعرض السلع المستوردة وتشترى دون ادراك لماهيتها والنهج الذي اتبع في صنعها. ان العلم والفن والفلسفة المستوردة تحافظ على استمرار ذهنية الوعي الخاطىء وتقويها في المجتمع.

ان النقطة الرئيسية التي اود التشديد عليها هي ان ما يقود العلم ويسيره في المجتمع هو دافع ينبثق من ذلك المجتمع، فيعطيه منطقه الخاص، وطبيعته الخاصة، وليست القيم والاهداف المجردة التي يضعها المجتمع مرمى له ولجهده الجماعي. ان القيم والاهداف دائما تبدو منطقية (عقلانية)، لكن التاريخ والاختبار التاريخي يعلمانا ان الامر غير ذلك. لنأخذ مثلين احدهما داخلي والاخر خارجي. تقول الايديولوجية الرأسمالية الليبرالية، ان هدف المجتمع حماية الفرد والحفاظ على حريته ورفاهيته وسعادته، بينما الواقع ان الفرد في هذا المجتمع مغترب ومستغل ومحروم ومقهور. تقول الولايات المتحدة ان قذف فيتنام بالقنابل (وقتل مئات الالوف من المدنيين الابرياء) هو حماية للديموقراطية و « العالم الحر » بينما الواقع هو ان جنوبي فيتنام ما هو الا ديكتاتورية عسكرية رفضها الشعب الفيتنامي وعانى على ايدي قادتها المدعومين بالمال والسلاح الاميركي اشد انواع القهر والتعذيب.

بكلمة اخرى، ان العلم والتكنولوجيا في الغرب، يقومان في النظام الحاضر على العنف والدمار وليس على الخير والسعادة والسلام. ان الدافع الذي يحرك النظام السياسي في الغرب هو دافع القوة والسيطرة، هو دافع غير منطقي (لا عقلاني)، لانه يسير التاريخ في غير مصلحة الانسانية. وهذه الظاهرة اللامنطقية تعشش في صميم نطاقه الفكري والعلمي، وتعبر عن نفسها في علاقاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في اوروبا وفي اميركا. ان الخبل يخيف اكثر عندما يصيب القوي والمعافى جسميا فلا تظهر عوارضه واضحة. والنموذج الغربي، الذي وضعناه مثالا نحتذي به، هو نموذج لكائن كهذا. ان اخذنا بهذا النموذج لا يمكنه الا ان يؤدي الى غرس التوتر، والتضارب، والتناقض في حياتنا، والى تفشي الكبت، والعصاب، والعجز النفسي في حياة الافراد فيه، حتى لو نجحنا في تحقيق النمو والتقدم والازدهار المادي، كما حدث تماما في المجتمعات الغربية « المتقدمة » و« المتطورة »، خلال القرنين الماضيين (منذ بدء الثورة الصناعية).

عندما بدأنا ندرس السلوك الاجتماعي في المجتمع العربي وعلاقته بالعائلة (بنمط تربية الفرد وبالتثقيف الاجتماعي)، لم يدر في خلدنا اننا كنا نأخذ ، في تقدمنا وتحليلنا لانماط هذا السلوك، عن غير وعي، انماط سلوك الغربيين نموذجاً للمقارنة ـ ووجدت بين اوراقي، مثالا على ذلك، الملاحظة الاتية بعنوان « تأثير المسايرة في مقدرة الفرد الانتاجية ».

« ان الرجل الاميركي اذا وجد لديه شيئا من الفراغ ينصرف الى عمل ما. فهو اما يحرث في حديقته واما يعد الحطب للشتاء واما يصلح

سيارته واما يقرأ. اما العربي فيفتش عن سبيل الى التسلية، فيدعو صديقا الى زيارته، او يذهب هو الى زيارة احد معارفه، وان لم يجد احدا، يتوجه الى المقهى، او الى مكان عام يفتش فيه عن احد يتساير معه ».

ومع ان الملاحظة، كما اوردتها اعلاه، وضعت دون اي تعليق، فان المقارنة بين السلوكين تعبر من خلال العنوان عن ان صفة المسايرة التي يتميز بها سلوكنا تعرقل الانتاج الاجتماعي، بينما نزعة العمل عند الغربيين تزيد منه. وبهذا فان السلوك الغربي يظهر من خلال المقارنة كأنه قدوة يجب الاقتداء بها.

لا شك،اذا كان الانتاج يشكل هدفا في ذاته، وخارجا عن اي اعتبار اجتماعي وانساني، فان سلوك الاميركي يجب ان يفضل على سلوك العربي. ولكن من المستحيل النظر الى الانتاج بتجريد عن السياق الاجتماعي وما يتضمنه من اهداف وقيم انسانية. وهنا يظهر خطأنا العلمي في المقارنة، بسبب ان العلاقات الاجتماعية التي يعيشها الغربي، بما فيها من ارتباطات وواجبات، هي التي تقرر نمط سلوكه في الاحوال المختلفة بما فيها وقت فراغه، وانه في نشأته وثقافته ونمط حياته اليومية « مدفوع » لان يعمل دائما، وان لا يهدر الوقت (لان « الوقت مال »)، حتى في اسلوب تسليته. اما العربي فوضعه الاجتماعي والثقافي مختلف، وبالتالي عاداته واهدافه وقيمه مختلفة ايضا. ان الانتاج في حياته لا يشكل هدفا اخيرا والعمل لا يرمز الى قيمة اساسية في منظوره الاخلاقي ولا يشكل لديه، كما لدى الغربي، فضيلة كبرى يعتز بها. والعكس هو الواقع اذ يستحسن لديه ان يخصص وقت الفراغ للمتعة والتسلية لا للمزيد من العمل والكد.

والسؤال هنا هو : اي السلوكين افضل، ذلك الذي يزيد مما يمتلكه الانسان، او الذي يزيد من متعته وسعادته في الحياة.

من الخطأ ان نعتبر النموذج الغربي مثلا يحتذى في عملية التغيير الاجتماعي التي تجابهنا اليوم. كان هذا النموذج (ولا يزال) مصدر الهامنا في كل ما نفكر، وفي كل ما نصنع، وما زلنا فريسة التمويه الذي حمله الينا مثقفونا بتقديسهم « للتراث الغربي » و« الحضارة الغربية »، وبعجزهم عن اتخاذ اي موقف نقدي صحيح نحوها. فاصبحنا نأخذ بكل ما هو غربي ونرفض كل ما يناقضه في ثقافتنا وفي ثقافة المجتمعات الاشتراكية.

ان عملية النقد العلمي تقع على عاتق الجيل الجديد من المثقفين. ربما كان الجيل الجديد اكثر قدرة من الجيل السابق على رفض التمويه واتخاذ مواقف نقدية نحو القيم والافكار التي تبثها المدارس والجامعات (والتي يفرضها الغرب بواسطة المجتمع الاستهلاكي القائم)، بصفته جيل الاستقلال والثورة. فافراده نشأوا وترعرعوا في مرحلة الثورة على الاستعمار، واصبحوا رجالا في الفترة التي حققنا فيها استقلالنا واصبحنا احرارا في كل جزء من وطننا. عاصر جلينا السابق امثال فرحات عباس وعرف مبادئه واهدافه (وما زلت اذكر مطالبه ان يرفض الجزائري هويته الجزائرية ليصبح « فرنسيا » له الحقوق نفسها كغيره من المواطنين الفرنسيين). ان احتقارنا لذاتنا، ومحاولتنا التغلب على هذا الاحتقار بالتعويض النفسي (بالتبجح على الغرب، بما قدمناه الى الغرب من علم وفلسفة الخ)، تجربة مؤلمة لا يعرفها الجيل الطالع كما عرفناها نحن. التمويه الذي تعرضنا له، والذي جاء به الاستعمار بواسطة مدارسه وجامعاته ومؤسساته

ووسائل اعلامه، لاقى قبولا كليا عندنا لشعورنا التلقائي بان كل ما هو فرنسي او انكليزي او اميركي يتفوق على ما عندنا ولو قلنا العكس. ان هذا التمويه ذاته يلاقي الآن رفضا ومقاومة شديدين عند الجيل الطالع الذي اخذ ينبذ، كما لم يفعل قط الجيل السابق، ما يفرض عليه من الخارج اذا كان الجيل السابق قادراعلىان يتغلب على الاستعمار ويقضي عليه سياسيا، (حتى لو بقي مستسلما له حضاريا ونفسيا)، فالجيل الصاعدقادر علىان يقضي عليه في الاشكال الجديدة التي يكتسبها لمد سيطرته من جديد.

التمويه الاجتماعي

اذن، يحتاج كسر الطوق، الذي يبعدنا عن انفسنا ويحجب عنا حقيقتنا وحقيقة مجتمعنا، الى التغلب على التمويه والتملك من ناحية المعرفة النقدية والتوصل الى المعرفة الذاتية المستقلة التي تشكل القاعدة الوحيدة للوعي الاجتماعي الصحيح. لكن المعرفة الذاتية تبقى عرضة للقوى المسيطرة في المجتمع لتحد من هذه المعرفة ولتستخدمها في سبيل تأمين مقاصدها. من هنا كان خطر التمويه الداخلي، اي ذلك الذي ينبع من المجتمع ذاته، من قيمه وعلاقاته المسيطرة التي تفرضها القوى، الحاكمة فيه.

يمثل المجتمع عندما يدخله الفرد طفلا، « مبدأ الواقع » (reality principle) بحسب تعبير فرويد، ويفرض على الطفل كل الصفات والعادات والميزات التي تجعله انسانا على صورة الانسان في مجتمعه، ويجبره على ترك « مبدأ اللذة »

(pleasure principle) عالم السعادة الطفولي المتناقض مع عالم الواقع الراشد. وهدف كل مجتمع تجاه كل طفل ان يصهره نفسيا وذهنيا ليطابق القالب الحضاري لذلك المجتمع، بترك عالم الطفولة، عالم الحرية والفرح، والانصياع لعالم الواقع، عالم الكبت والقهر.

تتم عملية الصهر اول ما تتم ضمن العائلة حيث يختبر الفرد اهم مرحلة من مراحل حياته، مرحلة تكيفه الاول مع عالم الواقع (عالم والده ووالدته، واخوته واقرانه) وبداية هجره لعالم السعادة.

ان الواقع الذي يجابه الطفل في العائلة هو واقع سلطوي (authoritarian) فنظام العائلة، كنظام المجتمع في كل مؤسساته، نظام هرمي يقوم على السلطة والعنف ويحتل الاب فيه المركز الرئيسي والاول ويحتل الطفل المركز الادنى. وتتميز تربية الطفل في العائلة السلطوية بالعنف والقهر المستمرين. ولا يقلل من ذلك كون الاب عادلا او متسامحا نحو زوجته واولاده. فالمؤثر الرئيسي هو العلاقات التي يقوم عليها نظام العائلة، والتي تقرر نوعية التفاعل بين الافراد وتحدد دور كل منهم، لا طبيعة الاشخاص الذين تقوم بينهم هذه العلاقات.

ويكون التصرف نحو الطفل في العائلة التي يلعب ضمنها الاب الدور المسيطر تصرفا في غالبه سلبيا، بحيث ينقل الى الطفل وينمي فيه الشخصية السلطوية التي تتميز بخضوعها للسلطة، وفي الوقت نفسه بتعاليها على من هم دونها، وبنزعتها المحافظة. وفي حين تزرع بذور هذه الشخصية ضمن العائلة تنمى صفاتها في كل المراحل اللاحقة التي يمر فيها الفرد في المدرسة والجامعة والوظيفة والدولة.

ان عقل الطفل وتركيبه العاطفي، وبالتالي مقدرته على مجابهة الواقع والتفاعل معه كعضو في المجتمع، تتأثر تأثيرا بالغا باسلوب المعاملة والتربية اللتين يتعرض اليهما في السنوات الاولى من حياته. فاذا كانت المعاملة سليمة والتربية صحيحة كان هدفهما تثبيت الثقة بنفسه وتشجيعه في كل ما يقوم به واشباع فضوله (بالاجابة عن اسئلته اجابات صادقة وكاملة)، وتقوية ارادته واعتماده على نفسه، وغمره بالمحبة والرعاية دون امتلاكه او الحد من استقلاله الذاتي. اما اذا كانت التربية تقليدية فانها تؤدي الى احباط عزيمة الفـرد، وضعضعة ثقته بنفسه، وتقوية اعتماده على الغير، والحد من فضوله (بتجاهل اسئلته او الاستهزاء بها)، وبالقضاء على استقلاله الذاتي.

حتى في افضل الاحوال يتعرض الطفل الى الاخطار العديدة التي تحيق به منذ ولادته. ففي مجتمعنا (كما في مجتمعات اخرى عدة)، يحرم الوالدان الاعداد المسبق للقيام بدورهما، وعندما يصبحان ابا واما بالفعل، يقومان بدورهما بشكل غريزي، او بحسب ما يتذكران من اختبار طفولتيهما، او بحسب ما تنصح الجدة او العمة او الجارة، فيكون اسلوبهما استمرارا للاسلوب الذي اعتمده الجيل السابق في تربية الاطفال. وهنا نرى حجر الزاوية الاساسي الذي تقوم عليه الحضارة في صهرها للشخصية الاجتماعية وانتقال نمط التربية وترداد تجارب الطفولة من جيل الى جيل.

وما ان يتحرر الفرد من عتو الاب السلطان حتى يقع تحت سلطة المعلم الديكتاتور. جميعنا يذكر ايام الدراسة البدائي منها والجامعي، ايام القهر والكبت والاضطهاد الفكري. وانني لا ازال اذكر الساعات

الطويلة الملأى بالضجر والصمت التي عانيتها انا وزملائي، في الجامعة الاميركية في بيروت، بالاستماع الى محاضرات اساتذتنا التي لم يكن لها نهاية. ولا انسى دروس الفلسفة التي لقننا اياها اساتذتنا، والاسلوب الذي كانوا يتبعونه في التعليم. فكان الاستاذ يدخل الى القاعة ويبدأ بالتكلم دون انقطاع، فندون ما يقوله، او نتظاهر بذلك (وكثيرا ما كنا نرسم في الدفتر بدل ان نكتب)، وعندما يحين الامتحان نحاول ان نستعيد اقواله. ولا ازال اذكر كتاب ارنست هوكنج الذي يستعرض المدارس الفلسفية المختلفة ابتداء من الطبيعيين والتجريبيين مرورا بالعقلين الى ان يصل الى مدرسة الفلسفة المثالية. وكان استاذنا يأخذ المدارس مدرسة مدرسة، فيفند مزاعم كل منها الى ان يصل الى المثالية. فيسندها ويدعمها فنخرج من الصف مثاليين. (ومن العجيب ـ او لعل من المتوقع ـ انني في اثناء دراستي الجامعية، لم اسمع مرة واحدة ذكرا لماركس).

ان التمويه الذي تعرضنا اليه جميعا في ايام دراستنا يمكن مع الزمن التغلب عليه، ذلك ان ما يدخل الوعي المباشر يمكن نقده وتغييره. لكن التمويه الذي يرجع الى السنوات الاولى من حياتنا يكون حاجزا من الصعب تجاوزه. وذلك لان الضرر الذهني والعاطفي الذي تسببه طريقة تربيتنا ومعاملتنا في الفترة الاولى من حياتنا يصعب تشخيصه وابراز معالمه في وعينا المباشر وبالتالي اصلاحه وتجاوزه. لذلك نبقى سجناء « شخصياتنا » فلا نتغير مهما طال العمر وتراكمت التجارب.

كي نكون صورة واضحة عن طبيعة الضرر الذهني والعاطفي في مثل الظروف التي اختبرناها ضمن العائلة السلطوية في مجتمعنا السلطوي، والنتائج الناجمة عن هذا الاختبار لتطور شخصيتنا

وتكوين عقليتنا في شكل عام، من المستحسن ان نرجع الى ما يقوله علماء النفس الاخصائيون حول الموضوع. وهنا اتناول اقوال ثلاثة من اشهر العلماء النفسيين : ميلاني كلاين، وسيغموند فرويد، وفيلهلم رايخ، وبهذا نعود الى التساؤل الذي ابتدأنا به الدراسة:

كانت ميلاني كلاين، العالمة النفسية المتخصصة في علم تحليل الاطفال النفسي، اول من اشار الى ان الكثيرين من الاطفال الذين يظهرون في صغرهم (حتى السن السادسة) ذكاء ومقدرة غير طبيعيين، يصبحون في كبرهم اعتياديين وغير متفوقين من حيث مقدرتهم وذكاؤهم، والى ان سبب هذا التأخر، على حد قولها، ينجم، « بحجم صغير او كبير، عن ضرر يتعرض له الطفل في ناحية من نواحي نموه الذهني ». وتقول كلاين ان دافع الفضول والمعرفة عند الطفل كثيرا ما يتعطل من سببين رئيسيين : السبب الاول هو كبت ورفض لما تسميه كلاين العامل الجنسي والعامل البدائي[1]. في حياة الطفل، نتيجة نمط التربية الذي يصهر شخصية الطفل بحسب متطلبات قيم وعادات ثقافية اجتماعية معينة. والنقطة الاساسية في نظرية كلاين هي ان عملية كبت الجنس والنزعة البدائية عند الطفل يصاحبها عملية كبت « افكار واشياء أخرى» ترتبط بنمو الطفل الطبيعي وتطور فضوله الذهني نحو الادراك والمعرفة. والسبب الثاني، بحسب نظريتها، ينجم عن فرض « افكار ومعتقدات جاهزة في شكل يقدر معه الطفل، من مستوى ادراكه غير المتكامل، ان يقاوم هذه

[1] مثال على البدائية في الطفل: محبته للاقذار وكراهيته للاغتسال، ومقاومته لآداب المائدة، وعدم احترامه لقوانين السلوك «المهذب» الخ....

الافكار والمعتقدات او ان يستخلص منها معاني او نتائج واضحة له، فيصاب بضرر ذهني دائم » . القوى الطبيعية وقوى ما وراء الطبيعة التي يتلقنها الطفل في تربيته الدينية والاخلاقية، والتصورات التي يستمدها من القصص والاساطير « فيتبلد من جرائها حسه الواقعي (reality-sense) فلا يعود يرفض ما لا يصدق بالحس والادراك، ويقبل بالاشياء الخيالية فيكبت ادراكه للاشياء المحسوسة والظاهرة ومقدرات فكرية اخرى ».[٢]

وهنا تلتقي كلاين مع استاذها فرويد الذي قال : « ان للدين قوة كبيرة في حد الفكر ولجمه ». ويصر فرويد على ان التخلف الذهني الذي يلحق بالطفل بعد السنة السادسة يعود الى اسباب مختلفة اهمها نمط التربية العائلية، وخصوصا ما يتعلق منها بالتربية الجنسية، وفي رسالة بعث بها الى احدى المجلات الطبية في فينا سنة ١٩٠٧ يقول : « اذا كان هدف المربي القضاء على مقدرة الطفل في ان يكون مستقل الفكر في اسرع وقت ممكن كي يغرس فيه السلوك الحسن، فليس اجدى لتحقيق ذلك من تمويهه حول الامور الجنسية، وذلك بارهابه بالافكار الدينية ».[٣]

ويعلق فرويد اهمية كبرى على نتائج التمويه حول الامور

[٢] Melanie Klein, **Contributions to Psycho-Analysis, 1921-1945** (New York, 1964), pp. 34, 38.

[٣] «The Sexual Enlightenment of Children», **Collected Papers,** (London, 1948) Vol. II, pp. 41, 42.

الجنسية في التطور الذهني. وهو يرى أن احد الاسباب الرئيسة للعصاب المسمى (obsessive speculating) بان «يصفن» الشخص دون التفكير في شيء معين هو، على حد تعبير فرويد، وجود «اسئلة لم تعط لها اجوبة» في ذهنه اللاواعي. ولا بد من أن هذه الاسئلة اثيرت في ذهنه خلال السنوات الاولى من حياته ولم يجد لها جوابا، اما بسبب رفض والديه للاجابة عنها واما لخوفه من ان يسألها، فبقيت مكبوتة في اعماق لا وعيه. ومن هنا نرى العلاقة المباشرة بين التربية العائلية او المدرسة (الجنسية والاخلاقية) وبين التطور والنمو الذهني في الفرد.

وكانت النتيجة التي توصل اليها فرويد هي ان التربية الجنسية التي تمارسها المجتمعات « المتمدنة » تنتج « رجالا ضعفاء ذوي اخلاق حسنة مصيرهم الذوبان في الجماهير واتباع القادة الاقوياء ».[٤]

وعالج هذه الناحية معالجة صافية وعميقة فيلهلم رايخ اشهر تلامذة فرويد وربما الاكثر تأثيرا في الفكر الثوري المعاصر.

يتجاوز موقف رايخ موقف فرويد وميلاني كلاين رابطا مباشرة بين الكبت الجنسي وبين ضعف القدرة على النقد والتمرد عند الفرد. ويقول في كتابه الشهير « تحليل النفسية الفاشستية » : « عندما يصبح الجنس محرما ينتج عن ذلك اضعاف القوى الذهنية لدى الفرد وخصوصا مقدرته على النقد والتقييم ». ويقول ان العائلة السلطوية تشل في الفرد قدرته على التمرد والثورة بكبته جنسيا فيقول : « ان

[٤] «Civilized Sexual Morality and Modern Nervousness». **Collected Papers,** Vol. II, p. 92

هدف الاخلاق، وما يسمى القيم الاخلاقية، تنمية اشخاص خانعين يتقبلون النظام السلطوي وقيمه دون تردد، ويتكيفون معه دون مقاومة، رغم الالم والاهانة اللذين يكبدهم اياهما هذا النظام وقيمه ».

ويعتقد رايخ ان الاضطهاد العائلي، خصوصا كما يتجسد في سطوة الاب، يخلق في الفرد شعورا بالنقص وتأنيب الضمير من جراء معاناته « لعادة الاستمناء التي تكون جزءاً لايتجزأ من اختبار كل طفل ومراهق بلا استثناء »[5] وهو يرى ان النزعة المحافظة التي تميز الكثيرين من افراد الطبقة المتوسطة الصغيرة، انما تقوم على عوامل نفسية وبيولوجية فاعلة في العائلة السلطوية كالتي ذكرتها اعلاه. وفي نظر رايخ ان قهر الفرد في سنوات الطفولة والمراهقة، ومنعه من امتلاك استقلاله الذاتي في تسيير امور حياته، يؤدي في سن الرجولة الى ميله الى اتخاذ مواقف سياسية تكون في الغالب اما محافظة واما لا مبالية سياسيا وهو يرى انه كلما ازدادت شدة التربية الجنسية ازدادت مقدرة العائلة (وبالتالي مقدرة المجتمع) على كسر شوكة الفرد وتدجينه سياسيا.

وقارن رايخ بين الاضطهاد الاقتصادي والاضطهاد الجنسي، ووجد العلاقة بينهما جذورية، وان اختلفت النتائج الصادرة عن كل منهما : « ان النتائج المترتبة على القهر الاجتماعي (الاستغلال الاقتصادي) تختلف اختلافا كبيرا عن النتائج الناجمة عن القهر

[5] **Mass Psychology of Fascism** (New York, 1970), p. 55.

الجنسي. الحالة الاولى (القهر الاقتصادي) تختلف اختلافا كبيرا عن النتائج الناجمة عن القهر الجنسي. الحالة الاولى (القهر الاقتصادي) تؤدي الى قيام الثورة ضد الاضطهاد والاستغلال، اما الثانية (الكبت الجنسي) فتؤدي ـ بسبب ربط الجنس بالاخلاق والدين ـ الى شلل نفسي يقتل القدرة على التمرد والثورة ضد الاضطهاد الاجتماعي والاضطهاد الجنسي على السواء ».[٦]

من هنا كان رايخ اكثر جذرية في نقده للتربية الجنسية والاخلاقية، بربطه هذه التربية بدوافعها الاجتماعية. وكان اول من نادى بضرورة التحرير الجنسي كشرط اساسي لتحقيق التحرير السياسي. فيصبح تحرير المرأة هدفا اساسيا في التحرير الشامل.

ان التغلب على التمويه اذا شرط اساسي للتغلب على القهر والاضطهاد في الفرد وفي المجتمع على السواء.

[٦] Bertell Ollman, « The Marxism of Wilhelm Reich », **The Hidden Dimension** (New York, 1970), p. 208.

الإنسان العربي والتحدّي الحضاري

ماذا نقصد بالتحدي الحضاري؟

هناك اسلوبان للاجابة عن هذا السؤال.

الاسلوب الاول ينطلق من التعميمات الواسعة ويتناول مشكلة التحدي الحضاري من زاوية الفكر الخطابي المجرد لينتهي الى الوعظ والتبشير. وهذا هو الاسلوب الاسهل وربما الاكثر متعة للكاتب والقارئ في آن واحد.

اما الاسلوب الاخر فينطلق من قاعدة الواقع الاجتماعي ويتناول القضايا المطروحة من زاوية التحليل العلمي ليتوصل الى فهم رصين يشكل بداية العمل في صلب الواقع من اجل تغييره وتجاوزه.

وفي هذه الدراسة سأتبع الاسلوب الثاني، وهو الاسلوب الاصعب لا لانه الاكثر تعقيدا بل لانه يثير قضايا حساسة ويتطلب التسليم بالحقيقة الجارحة والمؤلمة أحيانا.

يتألف الاطار الذي سأعتمده في تحليلي من ثلاث علاقات تشكل في نظري القاعدة الاساسية التي يقوم عليها مجتمعنا، وعلى تغييرها يتوقف كل تغيير حقيقي فيه. وهذه العلاقات هي:

١ ـ علاقاتنا بأطفالنا

٢ ـ علاقتنا بالمرأة

٣ ـ علاقتنا بعضنا ببعض

وسوف اتناول كلا من هذه العلاقات على حدة، واشرح المفاهيم المرتبطة بكل منها واحدد دورها في التركيب الاجتماعي العام وارتباطها بالعلاقات الاجتماعية الاخرى، ثم الى تحديد معنى التحدي الحضاري ومتطلبات مجابهته والتغلب عليه.

علاقتنا بأطفالنا

ان اول ما يجب الاشارة اليه في شرح هذه العلاقة هو أن التجارب التي يحياها الطفل خلال السنوات الخمس او الست الاولى من حياته تقرر تركيب شخصيته مدى الحياة. ولهذا فأن عملية تربية الطفل وتثقيفه خلال هذه السنوات أمر حاسم بالنسبة الى الفرد وبالتالي الى المجتمع.

وهناك حقيقة جوهرية اخرى يجب الالتفات اليها، وهي ان عملية تربية الطفل وتثقيفه في اطار العائلة ليست فقط عملية ارادية مخططة، بل هي ايضا انعكاس قيم ومعتقدات وأهداف تعبر عن تركيب اجتماعي محدد وتنبثق منه. بكلمة اخرى، ان الفرد، عندما يولد، يدخل في نظام عائلي معين. والعلاقة بين النظامين، نظام العائلة ونظام المجتمع، علاقة عميقة تمثل فيها عملية التربية والتثقيف دورا اساسيا. ويتلخص دور هذه العملية في انها تنقل قيم المجتمع وأهدافه الى الفرد وتغرسها في شخصيته اثناء تكونه النفسي في السنوات الاولى من حياته.

والسؤال المطروح هنا هو التالي:

ما هي السمات الرئيسية للشخصية الاجتماعية التي يتم غرسها في الفرد وهو طفل في المجتمع العربي؟ أو بكلمة اخرى، ما هي القيم والاهداف التي ينقلها المجتمع الى الفرد بواسطة التربية العائلية؟

في دراسة قمنا بها منذ حوالى سنتين حول علاقة التربية العائلية وسلوك الفرد الاجتماعي في المجتمع العربي المعاصر توصلنا الى هذه النتيجة: ان الصفات المميزة لسلوك الفرد في مجتمعنا يمكن حصرها بثلاث صفات اساسية هي: **الشعور بالعجز، التهرب، الاعتماد على الغير،** او بتعبير آخر، ان الشخصية التي يهدف اليها المجتمع وينتجها بواسطة العائلة هي شخصية تتميز برضوخها للسيطرة وبتهربها من المسؤولية وباتكاليتها. ان هذه الشخصية ترتبط في ولائها بالعائلة وبالعشيرة والطائفة وهي في سلوكها العام تسلم للقوى الفاعلة في المجتمع وتثبت العلاقات القائمة فيه.

لنأخذ مثالا على علاقة التربية بتكوين الشخصية وبالمجتمع الذي يغرس قيمه في هذه الشخصية.

الحادثتان اللتان شاهدناهما في دمشق وفي بوسطن تعبران احسن تعبير عن طبيعة هذه التربية ونتائجها في تكوين الشخصية والسلوك الاجتماعي المنبثق عنها وقد ذكرناهما سابقا ونكررهما هنا:

فؤاد وله من العمر ست سنوات كان يلعب في الشارع أمام منزله. واذا به يدق باب بيته مولولا وقائلا لامه ان ولدا آخر ضربه وأخذ منه كرته فكيف كان تصرف الام أمام هذا الوضع؟ أظهرت غضبها على الولد السارق وشفقتها على ابنها الباكي الذي احتضنته وأخذت

تواسيه وتطمئنه وتقول له: «انتظر حتى يجي ابوك، وشوف شو رح يعمل بهذا الولد الشيطان. هو رح يضربلك اياه ورح يرجعلك الطابة، ما تخاف».

هذه الحادثة شبيهة بحادثة اخرى جرت في بوسطن وهي ان جوني، وعمره سبع سنوات، رجع الى البيت بعد شجار مع صبي يكبره بأربع سنوات وقد اخذ منه كرة البيسبول التي كان أبوه قد اشتراها له. ولما اخبر امه عما جرى، ماذا قالت له؟ «انصحك ان تعود الى الملعب وتسترد الكرة منه. والا غضب ابوك كثيرا».

ان تصرف الام العربية واضح في مرماه، فهي تقول لابنها: انني اريدك عاجزا عن مجابهة مشكلاتك وحدك، انني اريدك ان تعتمد علي وعلى والدك وعلى عمك وعلى اهلك (اي على الغير) واريدك ان تبقى ابني الصغير وان تشعر ان البيت ملجؤك الاول والاخير وان والدك سندك وحاميك مدى الحياة.

اخضاع الفرد
وكسر شوكته

أما تصرف الام الاميركية فواضح ايضا.

انها بتصرفها تقول لابنها: عليك يا ابني الاعتماد على نفسك لا استطيع انا ولا يستطيع والدك ان نحل لك مشكلاتك، أذا اردت ان تنجح في هذه الحياة عليك ان تكون قويا وان تقاتل من يقف في طريقك والا داسك الناس بأرجلهم.

اسارع الى القول انني، بهذه المقارنة، لا اقصد تفضيل تربية

الام الاميركية على تربية الام العربية، كما ظن بعض القراء **عندما** نشر دراستي «ملحق النهار» حول سلوكنا الاجتماعي واوردت **فيها** **هذه** المقارنة.

الواقع ان الام، في كلتا الحالتين، تعبر عن القيم والاهداف **التي** تتحكم بالمجتمع الذي تعيش فيه. فالام الاميركية بتصرفها وتربيتها تعد طفلها لمجابهة التحديات التي يفرضها مجتمع صناعي يقوم على المنافسة والتناحر وتأكيد الذات.

ان الشخص الذي يعتمد على الآخرين والذي يهاب الاب ويحتمي بالام، ويحافظ على الولاء العائلي قد يكون في سلوكه ومعشره أقرب الى النفس وادعى للثقة والمحبة من الشخص الذي نشأ على الاعتماد الذاتي والتشكيك بالآخرين والمنافسة والعنف. لذلك اذا اردنا ان نميز بين تربية الام العربية وتربية الام الاميركية وجب علينا ان نميز بالاحرى بين مجتمعين مختلفين في تركيبهما وفي نظام قيمهما، وفي الاهداف التي يرميان الى تحقيقها.

اكرر : **المجتمع هو الذي يكون الفرد ويجعله على صورته وليس الفرد هو الذي يكون المجتمع برغباته واهوائه وافكاره المجردة.**

من الواضح ان مجتمعنا يرمي من خلال عملية التربية والتثقيف الى هدف اساسي هو اخضاع الفرد وكسر شوكته. والتعبير الاقوى والاكثر وضوحا لهذا يكمن في معاملتنا لاطفالنا وفي اسلوب تربيتهم وتثقيفهم. وتجدر الاشارة هنا الى ان عملية التربية والتثقيف لا تتألف فقط من التعليم المباشر بل ايضا **من الاشكال التي يتخذها سلوك الوالدين (واعضاء العائلة الآخرين) نحو اطفالهم**

وتفاعلهم معهم.

ومما لا شك فيه ان شخصية الطفل تنمو وتتكون بفعل ما يلاحظه ويسمعه ويراه من جانب والديه اكثر بكثير مما يتعلمه منهما مباشرة.

وتتخذ عملية اخضاع الفرد اشكالا عدة منها ما هو نفسي (سيكولوجي) ومنها ما هو فكري (اي تعلمي).

على الصعيد النفسي ان الوسائل الرئيسية للاخضاع هي كما رأينا ثلاث: **العقاب الجسدي والتخجيل والاستهزاء.**

ان صفع الطفل اذا اخطأ قد يرغمه على تصحيح الخطأ لكنه في الوقت ذاته يسبب له شعورا بالمذلة واحتقار الذات. وهو اذ لا يجد لهذا الشعور منفذا يحوله الى داخله او يوجهه نحو من هم اصغر واضعف منه.

ان العقاب الجسدي لا يعلم الطفل شيئا الا الرضوخ لمن هو اكبر او اقوى منه او لمن هو اعلى منزلة. من هنا يتعلم الفرد ان يسكت على القهر وأن يكبت الضغينة. ومن هنا تتكون في الفرد صفات لها ابعد الاثر في تكوين شخصيته وفي تطوير انماط سلوكه. لذلك نرى الفرد، في سلوكه الاجتماعي، بدلا من اعتماده على الصراحة والصدق والتعاون مع الآخرين، يميل الى المداورة والاسلوب غير المباشر، ويعتاد الدس والتمويه في تفاعله الاجتماعي. لهذا نجد ان الاغتياب ـ اي ذم الغائب وتعريته من كل المحاسن ـ هو من عادتنا الاجتماعية العميقة الجذور.

وكما ان العقاب الجسدي يشكل اداة مباشرة لاخضاع الفرد، فان التخجيل يشكل ايضا اسلوبا غير مباشر وربما اكثر فعالية في

ترويض الفرد وجعله اكثر امتثالا لارادة من هم اعلى منه. ومن آثار التخجيل انه يخلق في النفس شعورا بالذنب فيشعر الفرد انه مذنب ليس فقط على صعيد السلوك الفعلي، بل ايضا على صعيد النية، والواقع ان التربية الجنسية هي اهم اسباب هذا الشعور.

الجنس:
سرية، خوف، تكتم

في العائلة تحاط الامور الجنسية بالسرية والخوف والتكتم الشديد. فينمو الطفل ويبلغ سن المراهقة وهو معزول كليا عن حقيقة ما يجري حوله وما يدور في نفسه فتنشأ عنده عقدة نفسية ويصبح موضوع الجنس محوطا بالخجل، وفي الوقت ذاته، شأنا من اهم شؤون حياته. لهذا نرى ان الشاب العربي يتوجه الى اوروبا او اميركا لا طلبا للعلم فقط بل طلبا للجنس ايضا.

لقد اثبت علم النفس ان الكبت الجنسي يقتل روح التمرد في الفرد ويخضعه لارادة الاب وللسلطة الاجتماعية التي يمثلها هذا الاخير. وهذا الاخضاع يؤدي بدوره الى عوارض نفسية مختلفة منها ضعف القدرة على التساؤل الحر والتفكير المستقل، اي الى التشتت العقلي بشكل عام.

اما الاستهزاء فيجمع بين العقاب والتخجيل، وهدفه المباشر التقليل من قيمة الفرد تجاه نفسه وتجاه الاخرين. واذا تذكرنا طفولتنا ظهر لنا ذلك بوضوح. ان الاب ليس وحده مصدر الالم والقهر والشعور بالعجز الذي عانيناه جميعا في طفولتنا، بل هناك اشخاص

اخرون عديدون كانوا ايضا اداة للمجتمع ولعاداته في قهر نزعة الاستقلال والحرية فينا. من هنا كان القضاء على دنيا الطفولة واحلامها هو الثمن الذي يدفعه كل جيل في كل مجتمع من اجل ان تستمر فيه قيم الجيل السابق وعاداته. الا ان مجتمعنا يبدو من اكثر المجتمعات قسوة على الاطفال. ولعل ذلك يعود الى اننا نفصل فصلا تاما بين عالم الصغار وعالم الكبار،فننظر الى الطفل على انه رجل لما يكتمل بعد،وبالتالي لا نقر له شخصية خاصة وعقلية خاصة بمعنى ان للطفل عالما نفسيا له نوعيته وخصائصه الفريدة.

ولهذا فأن علاقتنا بهم تستند الى التعالي عليهم والابتعاد عنهم، وهذا يعود الى ان علاقة آبائنا بنا كانت على هذا المنوال، لذلك لا يمكن لنا ان نغير علاقتنا بأطفالنا ان لم نسترجع عالم طفولتنا، عالم الفرح والحرية والامل، **فنعيد الصلة بأصول حياتنا ونصبح قادرين على تضميد الجروح التي سببها لنا آباؤنا ونحن اطفال.** وان عجزنا عن ذلك فأننا سنستمر في علاقتنا القاسية بأولادنا فنعاملهم بالقسوة نفسها التي عاملنا بها آباؤنا لنجعلهم على صورتنا كما جعلنا آباؤنا على صورتهم، وذلك لنضمن خضوع أبنائنا لارادتنا، كما ضمن آباؤنا خضوعنا لارادتهم ولارادة الاجيال البائدة.

الارهاب المباشر
في التعليم

هذا على الصعيد النفسي. اما على الصعيد الفكري فعملية الاخضاع تأخذ شكلا خاصا هو **الارهاب المباشر في التعليم عن**

طريق التلقين ويهدف التلقين كطريقة للتعليم المباشر الى التسليم **بما** يتعلمه الفرد ويحفظه دون تساؤل او تفهم، فيصبح **العقل اداة ترداد وحفظ بدلا من ان يكون وسيلة تحليل ومعرفة ونقد.**

وقد نقل الي صديقي الدكتور سعد الدين ابراهيم، استاذ علم الاجتماع في جامعة دي بو الاميركية، قصة وقعت له في صغره في الكتّاب في احدى قرى الدلتا في مصر وهي توضح عملية التلقين توضيحا تاما.

قال: «في يوم من الايام كنت في الكتاب اكثر شقاوة من العادة. فضربني الشيخ بعصاه واذا بالدم يسيل من جرح طفيف في رأسي. فاضطرب الشيخ وتخوف من غضب والدي. فقال لي: «اذا سألك ابوك عما حصل قل له انني ضربتك عن غير قصد». ثم تردد قليلا وقال: «او قل له انك وقعت وفدغت رأسك». ولدى عودتي الى البيت سألني ابي بلهجته الصارمة: «ما بك، ماذا حدث؟» فأجبته دون تردد «لقد ضربني الشيخ عن غير قصد او انني وقعت وفدغت رأسي».

ونحن اذ نعلم اطفالنا الطاعة وتنفيذ الاوامر وحسن التصرف **نكبل عقولهم ونحد من نموهم الذهني الطبيعي.** والواقع ان الكبت الجنسي الذي يتعرض له الفرد يجد مقابله الكبت الذهني، والاثنان ينميان فيه نزعة الامتثال والتسليم والاتكالية.

ان مفتاح التغيير الاجتماعي يكمن في وضع حد لهذا الارهاب الذي يمارسه المجتمع على اطفاله بواسطة الآباء والامهات.

بمعنى آخر ان لم يتمكن جيلنا من ان يضمن لابناء الجيل الطالع **قدرا كافيا من الحرية والاستقلال ليتعلموا كيف يتدبرون امورهم بأنفسهم دون ضغط او الزام وكيف يتحملون مسؤولية اعمالهم**

ويجابهون مشكلاتهم دون تخوف او تهرب، فأننا لن نستطيع ان نغير في المجتمع سوى مظاهره الخارجية. عندئذ نبقى كما نحن، عائلات وعشائر وطوائف متنافرة في مجتمع متفسخ، عاجز عن مجابهة التحدي الحضاري وعن القيام بمهماته الاساسية تجاه نفسه وتجاه العالم.

علاقتنا بالمرأة

ان الاضطهاد في مجتمعنا هو على ثلاثة انواع: **اضطهاد الفقير واضطهاد الطفل واضطهاد المرأة.**

ولا ابالغ في قولي انه من المفجع ان يولد الانسان انثى في مجتمعنا. انني لا اعرف مجتمعا في العالم ـ حتى المجتمعات البدائية ـ وضع الانثى فيه مثل وضعها في المجتمع العربي. ومهما حاولنا اخفاء هذا الواقع او تبريره فالحقيقة بارزة امامنا وهي تصفعنا كل يوم.

مستحيل ان يتغير المجتمع العربي ما دامت المرأة العربية في وضعها الراهن، **وذلك لانها هي التي تصنع الانسان العربي.** وطالما ان المرأة العربية لم تتغير بعد فالانسان العربي غير قابل للتغيير. وعندما قال نابليون ان اليد التي تهز السرير هي اليد التي تهز العالم، قصد بذلك ان المرأة لا الرجل هي قاعدة المجتمع وركيزته.

اننا لا نعرف حقيقة وضع المرأة في مجتمعنا. ونحن بشكل لا شعوري، نرفض مجابهة هذه الحقيقة ونتناساها، وبالتالي نسدل

الستار على اهم مشكلاتنا الاجتماعية واكثرها تعقيدا. لكننا **اذا كنا** جادين في مجابهة التحدي الحضاري وفي بناء مجتمع جديد **في هذا** الوطن علينا قبل كل شيء **ان نعيد الى نصف هذا المجتمع انسانيته الكاملة.** فنحن عندما نقول « الانسان العربي » الا نعني الرجل العربي فحسب ؟ كيف لنا ان نجابه التحديات التي تهددنا وان نبني مجتمعا جديدا في حين ان نصفنا مشلول ؟ **وعندما يكون النصف مشلولا يصبح الكل مشلولا ايضا**، مهما كانت الظواهر. ان نقطة انطلاقنا هي اذن، **ان الانسان العربي هو الرجل والمرأة على حد سواء.**

شخصية
الفتاة العربية

في دراستنا عن تركيب العائلة ودور الام في تكوين شخصية الطفل توصلنا الى نتائج اولية حول الفوارق في تربية الصبيان والبنات ووجدنا ان الفارق الاساسي في ان الاولوية والاهتمام الزائد الذي يعطي للصبي على حساب البنت يتيح للبنت شيئا من الحرية يجعلها قادرة على تطوير قواها الذاتية في استقلال وفي سرعة لا نجدهما عند الصبي. لهذا تتكون شخصية الانثى باكرا ويصبح في امكانها القيام بواجبات واعباء لا يستطيع الذكر القيام بها في مثل سنها. ومن هنا نجد ان قدرات كثيرة لا نعرف ماهيتها بعد تنشأ عند الفتاة فتؤهلها لتمثيل ادوار هامة في حياتها والتأثير بصورة مباشرة في

حياة الرجل وعلاقاته وبصورة غير مباشرة في حياة المجتمع.

ان خبرتي في التدريس الجامعي خلال عشرين عاما تؤكد هذه الملاحظات. فالفتاة العربية عندما تتاح لها الفرص التي تتاح لزميلها الشاب تستطيع ان تتفوق عليه في كثير من الاحيان. وانني اميل الى الاعتقاد ان ذلك يعود الى الصفات والمزايا التي اكتسبتها في الصغر. وقد لاحظت ان طلابي العرب كثيرا ما كانوا يطلبون مساعدتي في ترتيب امورهم او في التوسط لهم او في ما شاكل من المساعدات فيظهرون بذلك الكثير من الاتكالية في سلوكهم. اما الطالبات العربيات فكن يرفضن المساعدة الا في الحالات الملحة، مظهرات بذلك اعتمادا على النفس واستقلالية ذاتية تثير الاعجاب. وقد كان في صفوفي في جورجتاون وفي الجامعة الاميركية في بيروت عشرات من الطلاب والطالبات من معظم البلدان العربية، منها الكويت والسعودية والخليج، واستطيع القول ان الطالبات كن دائما الاقوى شكيمة والاقدر على حل المشكلات ومجابهة الصعاب.

قلت ان التغيير في مجتمعنا لا يمكن ان يتم دون تغيير جذري في علاقاتنا بالمرأة وفي نظرتنا اليها. **وهذا يعني شيئا واحدا : تحرير المراة.**

منذ خمسة وسبعين عاما صدر الكتاب الرائد « تحرير المرأة » لقاسم امين، الذي نادى فيه بتعليم المرأة ومعاملتها معاملة الند للند ومشاركتها في الحقوق وفي الواجبات بالعدل والمساواة مع الرجل.

ها نحن بعد ثلاثة ارباع القرن وبعد مسيرة ثلاثة اجيال لا نزال ننادي **بتحرير المراة**. من الواضح ان مجرد ارسال البنات الى المدرسة وازالة الحجاب عن وجوههن ومنحهن بعض الحقوق المدنية والمهنية لا

يحقق تحرير المرأة. فالتحرير لا يتحقق بمجرد اقتباس **العادات** والملابس والمدارس الغربية فهذه ليست الا مظاهر خارجية **كثيرا ما** تخفي العلاقات التقليدية، **وبالتالي تمنع تغييرها.** ان تحرير المرأة لا **يتم في النهاية الا بتغيير علاقتها بالرجل، وهذا يعني تغيير دورها ومكانتها في العائلة وفي المجتمع.** هذا هو التغيير الجذري الذي يمكنها من تحقيق قدراتها الانسانية بصورة كاملة وبشكل تتساوى فيه حقوقها وواجباتها مع حقوق الرجل وواجباته فتصبح عندئذ انسانا بكل مافي ذلك من معنى. وهكذا يمكننا ان نقول ان الانسان العربي اصبح انسانا مكتملا لا نصف انسان.

ان عملية تحرير المرأة هي اذا عملية انعتاق شاملة تبدل العلاقات الاجتماعية من جذورها، وانها لا تحدث بمجرد قبول لفظي لحقوق المرأة بل هي حصيلة صراع طويل. وبالتالي فان تحرير المرأة في مجتمعنا جزء لا يتجزأ من عملية تحرير الرجل وتحرير المجتمع بكامله.

علاقتنا بعضنا ببعض

وهنا نأتي الى العلاقة الثالثة والاخيرة.

وانطلق هنا من حقيقة جوهرية هي ان **الفرد والعلاقات التي ينشئها هي حصيلة ظروف موضوعية لا حصيلة افكار او رغبات او مثل عليا، اي ان الواقع الاجتماعي لا الفكر المجرد هو الذي يقرر في النهاية تركيب المجتمع وطبائع افراده.**

والآن ماذا نقصد بالظروف الموضوعية ؟

هناك عاملان اساسيان : **العامل الاجتماعي والعامل التاريخي.**

على الصعيد الاجتماعي تكتسب شخصية الفرد طابعها المميز ضمن العائلة كما تتكون علاقته بنفسه وبالآخرين بفعل نظام تربوي تثقيفي يفرضه نظام القيم السائد في المجتمع، وذلك بواسطة العائلة اولا ثم بواسطة المدرسة او المؤسسات الاجتماعية الاخرى.

ان الفرد العربي، في تركيبه النفسي وفي السلوك الاجتماعي الذي يصدر عن هذا التركيب، يبدو فريسة اتجاهين متناقضين. فهو، من جهة، **مدفوع بنزعة فردية عمياء تجعله يخرج عن المجتمع ويخالفه. وهو من جهة اخرى، مدفوع بنزعة جماعية تجعله عاجزا عن العيش دون الالتصاق بالجماعة والاعتماد الكلي عليها**. والواقع ان كلا من هاتين النزعتين المتناقضتين تعبر عن بنيان واحد متماسك من العادات والتقاليد.

ان النزعة الفردية في مجتمعنا تتميز بطابع سلبي محض بحيث انها تهدف الى خير الفرد وحده ولا تقيم للكيان الاجتماعي اي اعتبار. فالفرد لا يكاد يخرج من اطار العائلة ويحوز على شيء من الاستقلال حتى ينصرف بكل قواه الى رفع شأن ذاته والتعويض عن الكبت والاضطهاد اللذين عاناهما ضمن العائلة. فهو يتحرق لابراز ذاته على حساب الآخرين ولتحقيق اهدافه حتى على حساب مصلحة المجتمع. وبالنسبة اليه فان مصالح الآخرين ومشاعرهم امر ثانوي لا يعيره اهتماما الا اذا ارتبط بمصالحه وبمشاعره. ان لسان حاله هو : « انا فوق الجميع ».

واذا صح قول علماء الاجتماع في ان سلوك الافراد في مجتمع ما

يظهر على حقيقته في ادب قيادة السيارات، فان ادب السير عندنا يؤكد تحديدي للنزعة الانانية في سلوكنا الاجتماعي. والجدير بالذكر ان اللطف والمسايرة اللذين يميزان سلوكنا الاجتماعي عندما نلتقي وجها لوجه هما وسيلة لاخفاء النزعة العدوانية اللاشعورية التي تكمن في كل منا تجاه الآخرين.

وهناك صفات اخرى ترتبط بالنزعة الفردية لا مجال لذكرها الآن. غير اني اود ان اسجل ملاحظة واحدة لا بد منها، وهي انه اذا كان لمجتمعنا العربي ان يتجاوز سلبيته وان يتطور نحو حياة انسانية افضل فلا بد له من التخلي عن الفردية المسيطرة عليه الآن وتحويلها الى **نزعة ايجابية اذ تحافظ على الفرد ومصلحته تنقذه من التنازع المميت. وبذلك يتمهد الطريق لبناء علاقات اجتماعية جديدة تقوم على الاخوة والتعاون في مجتمع ترتبط فيه مصالح الافراد واهدافهم بمصالح المجتمع واهدافه، بكل ما في ذلك من شمول.**

هذا التغيير لا يمكنه ان يتم بمجرد رغبتنا او نيتنا الحسنة بل انه يفترض تحولا جذريا في الوعي الاجتماعي **وفي علاقات اعضاء المجتمع الموضوعية.**

اما نزعة الانتماء الى الجماعة فلا تأخذ شكلا اجتماعيا بالمعنى الواسع بل شكلا عائليا وعشائريا وطائفيا. وهذا ما يضفي عليها تجاه المجتمع طابعا سلبيا كالذي نجده في النزعة الفردية. فالعائلية والعشائرية والطائفية تنمي في الفرد الولاء العائلي والطائفي والعشائري وكل منها لا يتوافق مع الولاء الاجتماعي بل يرفضه ويناقضه. ان ولاء الفرد نحو العائلة او العشيرة او الطائفة يحد من وعيه الاجتماعي ويقف في طريق الممارسة الاجتماعية السليمة. انه يستمد قوته من قوة الجذب القائمة في صلب النظام العائلي العشائري

الطائفي المسيطر على علاقاتنا الاجتماعية، وهو يمنع الفرد من تجاوز هذا النظام ويبقيه في شعوره وسلوكه اسيرا للفردية العشائرية والطائفية والعائلية.

وهنا لا بد من ايضاح هذه الظاهرة الخطرة، ولو باختصار شديد.

«نجاح اخي يعني فشلي»

يجب قبل كل شيء الا تغيب عن اذهاننا قاعدة اساسية رددناها حتى الآن بصيغ مختلفة، وهي تبرز هنا على الشكل التالي:

ان العلاقات الاجتماعية ما هي في النهاية الا انعكاس للعلاقات العائلية والعكس بالعكس. وما السلوك الاجتماعي الا تعبير عن الشخصية الاجتماعية المنبثقة من الارتباط الوثيق بين العائلة والمجتمع.

وخلافا لما يعتقده الكثيرون، فان نظام العائلة عندنا ـ على ما فيه من حسنات كاحترام الكبار وحماية افراد العائلة بعضهم بعضا في الملمات ـ يقوم على التنابذ والخلاف اكثر مما يقوم على التعاون والوئام. ان الغيرة والحسد يسودان علاقات افراد العائلة اكثر مما تسودها المحبة والتسامح. وهكذا الحال تماما في علاقات اعضاء المجتمع بعضهم ببعض. ان اولادنا يتعلمون منذ الصغر كيف يجري اغتياب الاصدقاء والاقرباء وكيف يجهر الانسان بما لا يضمره ومن أين تؤكل الكتف. وفي تنافسهم على محبة الام وعطفها يتعلمون بشكل تلقائي

كراهية الاشقاء واعتبارهم منافسين ومنافسات يجب التحسب **لهم**. كذلك فان الوالدين ينميان روح الغيرة في نفوس اطفالهما وذلك بتصرفاتهما اللاواعية نحوهم. فاذا ميزت الام، ولو بكلمة واحدة، بين ولد وآخر فانها قد تسبب عند الواحد او الآخر نقمة او شعورا بالنقص يصبح جزءا من تركيب شخصيته فيؤثر في سلوكه تجاه نفسه وتجاه الآخرين.

ان نجاح القريب او الصديق مدعاة للفرح والاعتزاز. لكنه كثيرا ما يخلق في نفس الفرد شعورا غامضا بالقلق والغيرة فيحاول الفرد رفض هذا الشعور وازالته من وعيه، **الا انه يبقى ولو مطمورا في اللاوعي فيظهر في سلوك الفرد تجاه من يتفوق عليه.** ان هذا الشعور له منطقه الخاص **ومصدره الاكيد هو التفاعل العائلي في سنوات الطفولة الاولى** حيث تتكون الذات وتنمو من جراء تفاعلها مع الذوات الاخرى المحيطة بها. والواقع ان من أوائل الاشياء التي يتعلمها الطفل في عائلته هو « ان نجاح اخي يعني فشلي ».

وهنا اود ان أنبه انني لا ابغي القول ان هذه الصفات هي ظاهرة يتميز بها مجتمعنا دون المجتمعات البشرية الاخرى. العكس هو الصحيح، فهذه الصفات عامة نجدها في كل عائلة وفي كل مجتمع. وما اريد التشديد عليه وتوضيحه هو ان هذه الظاهرة تبدو في مجتمعنا اكثر قوة وفاعلية في تكوين نفسية الفرد وسلوكه منها في المجتمعات الاخرى، وذلك بسبب نظامنا العائلي والعشائري الطائفي وما في داخله من ترابط.

ان هذا التضارب بين نزعة فردية سلبية تقوم على مجرد توكيد الذات (وما توكيد الذات هنا الا تعبير عن عدم الثقة بالنفس)، وبين

نزعة جماعية سلبية تقوم على التوكل العائلي ـ العشائري ـ الطائفي، ان هذا التضارب يشكل المحرك الاجتماعي الاقوى للنزعة السلبية التي تميز علاقاتنا بعضنا ببعض وعلاقاتنا بانفسنا.

التحدي الحضاري

والان لنعالج العامل المكمل للعامل الاجتماعي، ولنأخذ هذا العامل **من زاوية علاقتنا بالغرب**، وبذلك نصل الى موضوعنا الاخير وهو تحديد معنى التحدي الحضاري.

ان تاريخنا الحديث ابتداء مما نسميه عصر النهضة، هو في صميمه حلقات من ردود افعال متتالية على التحدي الغربي، وذلك على كافة المستويات من سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وثقافية. ولا يمكننا ان نفهم طبيعة التطور الذي طرأ على مجتمعنا على كافة هذه المستويات الا اذا فهمنا، من جهة، **حقيقة التحدي المستمر الذي يشكله الغرب بالنسبة الى** مجتمعنا، ومن جهة اخرى، ردود **افعالنا** في وجه هذا التحدي.

اذا اخذنا الناحية المادية ـ على الصعيد العسكري والسياسي **والاقتصادي** ـ وجدنا ان تاريخنا الحديث بكل سلبياته وايجابياته هو من صنع الغرب بصورة مباشرة او غير مباشرة، اي انه يشكل سلسلة من ردود الفعل عليه.

الم **يفرض** علينا الغرب منذ بدء احتلاله النظم والمؤسسات السياسية **والاقتصادية** التي سيرت مجتمعنا وجعلته على ما هو عليه

في نظامه وتركيبه ؟

الم يفرقنا الغرب فجعلنا دويلات ورسم لنا حدودنا وقرر مدى سيادتنا وطبيعتها ؟

الم يربطنا بنظامه الرأسمالي مقررا بذلك اتجاه تطورنا الاقتصادي والاجتماعي ؟

ألم يقتلع جزءا من ارضنا ويزرع اسرائيل في قلب وطننا فيتمكن من غزونا سنة ١٩٥٦ وضربنا سنة ١٩٦٧ ومنعنا من تحرير ارضنا سنة ١٩٧٣ ؟

الم يهددنا (وما يزال) بقوته العسكرية وبتدخله المباشر وغير المباشر وبالعقوبات الاقتصادية والسياسية ليبقينا تحت ارادته ورهن مصلحته ؟

رضاء الغربي واعجابه

واذا كنا قد تمكنا اخيرا من الوقوف في وجه التحدي الغربي وانتزاع بعض حقوقنا المشروعة منه، **فاننا لا نزال على الصعيد النفسي والحضاري تحت سيطرته.** وهنا يكمن، في نظري، العامل الحاسم في مجابهتنا للتحدي الغربي.

فما هو هذا الاستعمار الحضاري وما هي انعكاساته الاجتماعية والنفسية ؟

بالنسبة الينا، عندما نستعمل في حديثنا كلمة « المدنية » او « الحضارة » انما نعني بذلك الحضارة الاوروبية او الحضارة

الاميركية اي الحضارة الغربية. ومنذ بدء علاقتنا بالغرب ونحن نعاني من شعور بالنقص تجاه كل ما هو غربي. ولا نزال حتى اليوم نتخذ في حياتنا اليومية انماطا ونماذج للعمل والفكر والسلوك نستمدها من الغرب دون تفحص او تقييم ونقبلها بلا سؤال لمجرد انها اوروبية او اميركية المصدر. فالغرب بالنسبة الينا اصبح مصدر كل شيء قيم ومتفوق ورفيع، وصرنا ننظر الى الغربي على انه من جبلة اخرى غير التي جبلنا منها نحن او جبل منها سائر البشر. حتى **اصبحنا ننظر الى انفسنا والى مجتمعنا والى تاريخنا من خلال نظرة الغربي الينا، فكأن همنا الاول ـ عن وعي او عن غير وعي ـ ان نحظى برضاء الغربي وباعجابه.**

ان شعورنا بالنقص تجاه الانسان الاوروبي او الاميركي يعكس نفسه باشكال مختلفة الا انها كلها محقرة لنا ولقيمتنا تجاه انفسنا كافراد وكجماعات. ولعل اهم هذه الاشكال **محاولات كتابنا ومفكرينا منذ بداية هذا القرن ان يبرهنوا عن عظمة التراث العربي والاسلامي ومدى تأثيره في الحضارة الاوروبية وتطورها.** وما هذه المحاولات من الوجهة السيكولوجية غير تعبير عن هذا الشعور بالنقص ومحاولة التعويض عنه بايجاد صلة مشرفة تربطنا بالغرب وتجعلنا جزءا منه ولو من زاوية تاريخية مجردة. اننا في تفاخرنا على الغرب وتبجحنا بعطائنا الحضاري له انما نؤكد رغبتنا الخفية في ان نكون مثله لنحظى بقبوله وباعجابه. وهذا الشعور بالنقص هو الذي يدفعنا ايضا في الاتجاه المعاكس، اي الى الطعن في كل ما هو غربي والى التعلق الاعمى بالتراث وبالتقاليد.

والواقع ان مفهوم مجابهتنا للغرب قد غلب عليه منذ البدء

الطابع الثقافي التجريدي الذي نجده خاصة عند الكثيرين من المفكرين العرب. فكان رد الفعل عندنا على نوعين : اتجاه نحو التحديث على النمط الغربي، واتجاه اخر نحو المحافظة على التقاليد والعودة الى **التراث القديم.**

افتقد الجزائريون لقمة الخبز

لقد واجه رد الفعل العربي في كلا الاتجاهين، التجديدي والسلفي، طريقا مسدودا **وذلك لانه بقي رد فعل ثقافيا مجردا في محتواه ومفاهيمه.** ولم يستطع مجابهة الغرب على المستوى العملي الحسي الذي يقرر كل صراع وكل مجابهة.

ان القهر الذي عاناه الانسان العربي من جراء فشله في مواجهة التحدي الغربي قد افقر الحياة العربية فكريا وماديا وحرم اجيالا بكاملها من العيش الآمن الكريم في وطنها.

لقد اتانا الغرب مبشرا بالمثل العليا، بالحرية وبالعدالة وبالمساواة، ولكنه في ممارسته لهذه القيم كان شيئا آخر. نظرته لنا كانت نظرة السيد الى المسود وتصرفه تجاهنا كان على حساب مصلحتنا ولم يقم لنا اي اعتبار كبشر لهم امان ومصالح واهداف. **وكان الثمن الذي دفعناه لتأمين مصالح الغرب وازدهاره هو بؤسنا وضياعنا وتخلفنا.**

وتظهر هذه العلاقة بوضوح اكبر على الصعيد الاقتصادي. **ففي**

مصر تم بناء اقتصاد البلاد بعد تمركز المصالح الغربية فيها، خصوصا بعد الاحتلال الانكليزي، على زراعة القطن، الامر الذي ادى الى ازدهار صناعة النسيج في بريطانيا وافقار شعب مصر.

وفي الجزائر، بعد الاحتلال الفرنسي، صارت صناعة النبيذ صناعة البلاد الاولى، هذا في بلاد حرم على اهلها شرب الخمر. فجنى الفرنسيون الارباح الطائلة في حين افتقد الجزائريون لقمة الخبز الذي كان يستورد من الخارج.

واما النفط، مورد العرب الاول، فقد هدره الغرب دون حساب خلال ربع قرن، وتمكن بفضل نفطنا من اعادة بناء اقتصاده بعد الحرب وتحقيق اكبر ازدهار عرفه في تاريخه. واليوم يقول لنا الغربيون ان الدخل العربي اصبح كبيرا على العرب لذلك لا بد من استعمال الفائض في مساعدة البلدان الصناعية (اي الغربية) **للحفاظ على ميزان مدفوعاتها وحماية نموها الاقتصادي !** هذا في حين اننا نعاني، في الوطن العربي، اشد انواع التخلف. مثلا، ان معدل الدخل السنوي للفرد في بلدان عربية عدة منها مصر والمغرب، واليمن، هو دون ال ٢٠٠ دولار، ولرفع هذا الدخل السنوي ١٠٠ دولار فقط يتطلب صرف حوالي ١٠ بلايين دولار سنويا في التنمية الاقتصادية.

لهذا اقول ان الاطار الثقافي المجرد الذي لا يرى التحدي الا بمنظور التجديد او التقليد، اي في الاخذ بنموذج الغرب او بنموذج السلف، هو اطار خاطىء لا يؤدي الى نتيجة. ان الاطار الصحيح هو الذي يكشف لنا معنى التحدي ويظهره على حقيقته، **اي على انه تضارب تصادمي في المصالح والقيم والاهداف.**

هذا لا يعني اننا نرفض الغرب وثقافة الغرب وعلمه بلا قيد

ولا شرط. اقول، لا مانع اطلاقا من ان نتعامل مع الغرب **وان نستمد منه نماذج وافكارا ومواد لانعاش حياتنا الاقتصادية واعادة تنظيم مجتمعنا واحياء ثقافتنا العربية شرط ان يكون ذلك على اساس مساواة الند للند.** ولذلك فان الشرط الاول لمجابهة التحدي الحضاري هو التغلب على شعورنا بالنقص تجاه الغرب والغربيين. وهذا يعني عمليا كسر الطوق الذي يجعلنا نعتبر، تلقائيا وبلا وعي، ان ما هو اوروبي او اميركي يجب ان يتميز عن غيره (بمن فيه نحن) وان يكون دائما افضل واكثر قيمة منه. لماذا نسعى جاهدين للظهور بمظهر « لائق » امام الغربي، فنكد ونتعب لنبرهن له عن « تقدمنا » و« رقينا »، فنأخذه ليرى بناياتنا الحديثة وشوارعنا العريضة ونخفي عنه كل ما يظهرنا على حقيقتنا في مجتمعنا وعاداتنا واذواقنا ؟ اننا في سلوكنا هذا نقول للغربي : « انظر الينا، مع اننا اقل منك شأنا نحاول ان نكون مثلك، فالرجاء ان تتقبلنا وان تمتدحنا وان تمنحنا رضاك ». ولكن كيف لنا ان نجابه اي تحد بهذه النفسية ؟

لا بد من خلع سيطرة الغرب

اذا كان لنا ان نجابه التحدي الغربي وان نتغلب عليه فلا بد من خلع سيطرة الغرب الحضاريةكما خلعنا سيطرته السياسية، ومن دون ذلك لا يمكننا ان نتفاعل تفاعلا سليما معه ولا يمكننا ان نتحرر منه. واذا كان هذا امرا صعب التحقيق فذلك لان **الاستعمار الحضاري هو استعمار نفسي بينما الاستعمار السياسي**

يستهدف الظاهر والمحسوس فحسب.

ان المجتمع الغربي هو اول مجتمع في التاريخ يستطيع بفضل تقدمه العلمي والصناعي ان يوفر لافراده الاسس المادية لبناء حياة انسانية حقة. ولكنه بدلا من ان يحقق ذلك خلق نظاما اجتماعيا اقتصاديا لا يزال يرتكز على استغلال الانسان وعلى قهره وعلى كبته. ان الغرب الحديث قائم على العنف ومضرج بالدماء، واذا قسناه بمقدار القتل والدمار الذي سببه في عصرنا لوجدناه اكثر وحشية واشد همجية من اي مجتمع في التاريخ. لنأخذ مثلا على ذلك الحربين الاخيرتين. فقد قتل في اوروبا اكثر من ٦٠ مليون انسان وشرد ملايين من البشر في كافة انحاء العالم. ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية قتل وشرد من الآسيويين والافريقيين على يد الاوروبيين والاميركيين ما يزيد عن ٤٠ مليون نسمة ذنبهم انهم ارادوا التحرر من استعمار الغرب. ولا نستغرب اذا وجدنا ان الاحصاءات في الولايات المتحدة تشير الى ان ما لا يقل عن ثلث سكان المدن الاميركية مصابون بمرض نفسي، وان اكثر من ٥٠ مليون اميركي (اي ٢٥ بالمئة من سكان الولايات المتحدة) يعانون من نقص في التغذية.

ان الانسان في هذه الحضارة لا يكون القيمة الاساسية او الهدف الاخير للمجتمع كما تقول نظرياته ومثله الاخلاقية. انه اداة للنمو الاقتصادي الاعمى والتوسع الاستهلاكي من دون نهاية، ولا يشكل غاية انسانية في حد ذاته الا في اوقات الوعظ في الكنائس والمناسبات الخطابية.

ان مقدرتنا على مجابهة التحدي الحضاري تتوقف في النهاية على امرين :

اولا ـ على فهم صحيح لحقيقة الغرب ولما نريده من الغرب.

ثانيا ـ على القدرة على تجاوز نظرية التحديث ونظرية التقليد في مجابهتنا للغرب، والسير في طريق حضاري مستقل.

فقط بالعودة الى انفسنا وبالاعتماد على قوانا وادراكنا وارادتنا المستقلة نستطيع ان نبني مجتمعا جديدا وحضارة جديدة كما نريدهما نحن لا كما يتصورهما او يريدهما غيرنا.

والعودة الحقة الى النفس لا تكون الا بتحرير النفس. لذلك كان التحرير الاجتماعي مرتبطا بتغيير العلاقات الثلاث التي تحدثت عنها، وما تحرير الطفل وتحرير المرأة الا الشرط الاول والاساسي لتحرير الانسان في المجتمع العربي وبالتالي لتحرير المجتمع بكامله.

اننا الآن على مفترق تاريخي يؤهلنا للبدء في عملية تحرير الانسان في كل بقعة من الوطن العربي، ولبناء حضارة يكون هدفها تلبية حاجة الانسان لا حاجة الآلة او صاحبها، حضارة قادرة على دخول التاريخ والاسهام في تقدم الانسانية.

المثقف العربي والمستقبل

للثقافة والمثقفين مكانة خاصة في المجتمعات الفقيرة النامية، والجهل يرسم صورة مضخمة للعلم والمتعلمين، ويعطي المثقف مركزا متميزا ويتوقع منه المستحيل. وفي تصور هذه المجتمعات يختلط المثقف بالمتعلم، ويصبح كل من حصل على قسط من العلم، في نظرها، مثقفا.

الواقع ان المثقف ليس من احسن القراءة والكتابة او من حصل على شهادة علمية (هناك اميون بين حملة شهادة الدكتوراه)، بل ان ما يميز المثقف، في اي مجتمع، صفتان اساسيتان:

الوعي الاجتماعي الذي يمكن الفرد من رؤية المجتمع وقضاياه من زاوية شاملة، ومن تحليل هذه القضايا على مستوى نظري متماسك.

والدور الاجتماعي الذي يمكن وعيه الاجتماعي من ان يلعبه، بالاضافة الى القدرات الخاصة التي يضفيها عليه اختصاصه المهني او كفاياته الفكرية.

وعليه فمجرد العلم حتى لو كان جامعيا، لا يضفي على الفرد صفة المثقف بصورة آلية، فالعلم ما هو الا اكتساب موضوعي، ولا يشكل ثقافة في حد ذاته، انه يصبح ثقافة بالمعنى الشامل اذا توفر لدى المتعلم الوعي الاجتماعي، ذلك العامل الذاتي الذي من خلاله فقط

يصبح الفرد مثقفا، حتى لو لم يعرف القراءة والكتابة، ومن دونه يبقى اميا، حتى لو كان طبيبا او استاذا جامعيا.

فئات المثقفين

هناك اربع فئات من المثقفين.

تتألف الفئة الاولى من المثقفين الملتزمين، اي اولئك الذين يتطابق عندهم الفكر والممارسة بحيث لا يمكن التفريق بين حياتهم الخاصة وحياتهم العامة. هؤلاء يقدمون حياتَهم الى قضية او الى هدف اجتماعي فيصبح مصيرهم ومصير قضيتهم مصيرا واحدا. ان هذا اعلى انواع الالتزام، فالوعي هنا ممارسة كاملة والممارسة هنا وعي كامل. وتشكل هذه الفئة من المثقفين في مجتمعنا، وفي كل مجتمع، الاقلية الضئيلة بين المثقفين، الا انها الطليعة المسؤولة عن التغييرات الاساسية التي تحدث في المجتمع وتشكل اداة انتقاله من مستوى الى مستوى اعلى. ومن الناحية الاجتماعية، فان الذين ينتمون الى هذه الفئة مثقفون ينبثقون من خلفيات وطبقات اجتماعية مختلفة، ولا يجمعهم اختصاص او مهنة معينة، بل وعي واحد وممارسة واحدة، فتجد الطبيب الى جانب الطالب والاستاذ الى جانب العامل والفلاح.

وتتألف الفئة الثانية من المثقفين، من «اهل القلم»، من الادباء والكتاب والمفكرين العاملين اجتماعيا بالكلمة لا بالممارسة المباشرة. ويعتمد دور هذه الفئة في عملية التغيير الاجتماعي على تأثيرها في الرأي العام وقدرتها على تغيير الوعي الاجتماعي ودفعه نحو آفاق جديدة. وهذا التأثير لا يظهر الا في المدى الطويل، اذ ان «العمل الفكري» لا

يشكل عملا الا عندما يصبح قوة مادية تفعل في المجتمع وتغيره ماديا، وهذا يأخذ وقتا طويلا. ومن الواضح ان التزام هذه الفئة من المثقفين هو التزام معنوي، فممارستهم ممارسة فكرية، ولا تفرض عليهم نمط حياة معينا.

والفئة الثالثة تتألف من العاملين في حقل «التثقيف» و«التعليم» من الاساتذة والمعلمين. وتأثيرهم في العمل الاجتماعي هو نتيجة عملية التعليم المباشر التي يمارسونها، وهو، كتأثير الفئة الثانية، طويل المدى يرتبط بحياة الجيل الصاعد. والتزام هذه الفئة من الاساتذة والمعلمين، التزام فكري معنوي، فهم كالكتاب والادباء يمارسون العمل الاجتماعي دون الانخراط المباشر في صراعات المجتمع وانهماكاته. وعلى رغم ذلك، فان الاساتذة والمعلمين يلعبون دورا مهما في تكوين القوى الطليعية وتحريكها.

اما الفئة الرابعة، فتتألف من «المهنيين»، اي من الاخصائيين والتكنوقراطيين العاملين في الحقول العلمية والصناعية والادارية المختلفة. وهذه الفئة من المثقفين تشكل (في كل المجتمعات) الفئة الاكثر بعدا عن الوعي الايديولوجي والسياسي. وتأثيرها في المجتمع ينبع من ممارستها المهنية ونتائج عملها في حقول اختصاصها. والتزام هذه الفئة التزام مهني محض، ولا يتجاوزه الا في حالات استثنائية. وتأثير هذه الفئة في التغيير الاجتماعي على المدى الطويل جذري وعميق، ذلك لان التغيير المنبثق من العلم والتكنولوجيا يؤدي الى تحول جذري في بنيان المجتمع المادي وفي علاقاته الاجتماعية. ولعل الفئتين الاكثر تأثيرا في حياة المجتمع هما الفئتان الاكثر تناقضا:

الفئة الاولى، المتميزة بالتزامها الايديولوجي وممارستها

السياسية، والفئة الرابعة المتميزة ببعدها عن الايديولوجيا وعن الممارسة السياسية وبالتزامها المهني.

دور المثقفين

في مطلع هذا القرن، كان المثقفون في مجتمعنا نخبة صغيرة واضحة المعالم والاهداف لا يتجاوز عددها الواحد في المئة من مجموع السكان. واصبحت هذه النخبة، اليوم، بفضل انتشار الثقافة والتعليم، فئة واسعة تعد بالآلاف وعشرات الآلاف. لكن ارتفاع عدد المثقفين ونسبتهم المئوية في المجتمع لم يغير كثيرا من دورهم الاجتماعي، وان ادى الى تغيير تركيبهم الاجتماعي وتطلعاتهم السياسية والاديولوجية. وهم اليوم ينتمون، على الغالب، الى الطبقات المتوسطة والصغيرة، بعدما كان معظمهم ينحدر من العائلات الكبيرة في المدن ومن الاقليات المسيحية.

لقد استطاع المثقفون، في مطلع هذا القرن، ان يلعبوا دورا اكثر فعالية في المجتمع من الدور الذي يلعبه المثقفون اليوم، ويعود ذلك الى عوامل تاريخية واجتماعية. ففي تلك الفترة الانتقالية، كان المثقفون اقرب الى مراكز الفكر والسلطة السياسية واكبر ثقلا منهم اليوم في عملية اخذ القرارات. كان المجتمع، في اول يقظته، في حالة تفتح ونمو واكثر حساسية وتقبلا لدور المثقفين فيه، كما كانت السلطة السياسية لا تزال في يد العثمانيين، والفئات الصاعدة لا تزال تصارع من اجل الحكم الذاتي والاستقلال ولم يتحجر الحكم بعد، كما حدث ابتداء من الحرب العالمية الثانية والانقلابات العسكرية، في يد فئات عسكرية

ومدنية استأثرت بالحكم وابعدت المثقفين عنه او استعملتهم ادوات لسلطتها.

مزايا المثقفين

يقرر مدى فاعلية المثقف في المجتمع عوامل مختلفة، منها الموضوعي ـ النظام السياسي القائم، طبيعة العلاقات الاجتماعية المهيمنة والوعي الاجتماعي الراهن. ومنها الذاتي ـ الوضع الشخصي، مستوى الوعي الذاتي، طبيعة الثقافة والتخصص العلمي.

على الصعيد الموضوعي، نرى ان المجتمعات المتخلفة عاجزة عن ان توفر للمثقف المركز او القيمة «اللائقة» به، مثل عجزها عن استغلال مواردها المادية والبشرية بشكل سليم. والنظام الذي يغلق الابواب في وجه مثقفيه يدفعهم الى التناقض معه، فيجد المثقف نفسه امام احد امرين: فهو اما ان يكيف نفسه مع متطلبات الوضع القائم، فيقبل بالعمل المتوافر ولو لم يكن «لائقا»، ويفرض على نفسه رقابة فكرية ويحد من قوله وعمله، او يرفض الوضع القائم فيعمل ضده او يهجره.

والمؤثر الاقوى في سلوك المثقف ليس افكاره او اهدافه او مثله، بل وضعه المادي ومركزه الاجتماعي. وعندما يتخطى المثقف مرحلة الشباب ويصبح ذا مسؤوليات عائلية، يجد نفسه سجين صراع عيشه اليومي وبعيدا عن مواضع افكاره واهدافه ومثله.

في مجتمعنا ينتمي المثقف الى الطبقة الوسطى او الوسطى الصغيرة، ويحمل في تركيب شخصيته، قيم هذه الطبقة ودوافعها.

فتراه في حاجة الى اكثر من مجرد «العيش»، ويتطلب مستوى «لائقاً» به وبعائلته. لكنه على صعيد النية صادق في نيته: فهو يرمي الى ان يعيش حياته بحسب مبادئه، وان يطابق حياته على افكاره، وان يعلو عن انتمائه الطبقي، ولكنه قلما ينجح. كلما ازدادت حاجاته المادية وتحول ارتباطه الايديولوجي الى ارتباط لفظي ازداد ارتباطه الفعلي بالوضع القائم ورضوخه له.

ان المثقف نادرا ما يهجر بلده بسبب الكبت الفكري. انه لا يهاجر الا اذا رافق الكبت الفكري كبت مادي فاغلقت الابواب في وجهه. فهو قد يسكت عن الكبت الفكري، لكنه لا يستطيع ان يتحمل الحرمان المادي.

نزعة التذبذب الفكري

من صفات المثقف الاساسية على الصعيد الذهني التذبذب الفكري: المثقف عرضة اكثر من غيره «لتغيير رأيه»، والتذبذب الفكري هو عدم القدرة على الثبات في موقع فكري معين والتبعثر بين منطلقات واتجاهات مختلفة ومتضاربة.

ان نزعة التذبذب الفكري تنبع من حالة الاقتلاع التي يعانيها المثقف، وهي لا تعكس فقط وضعا نفسانيا قلقا، بل ايضا وضعا اجتماعيا مهددا دائما.

النزعة الانتهازية

ان هذا الوضع القلق والمهدد كثيرا ما يدفع بالمثقف الى السبيل

الانتهازي. فالمثقف، كي يحمي نفسه من الحرمان، من الهجرة، من السجن، يضطر احيانا الى المساومة. وفي مجتمعنا العربي لا امان للمثقف ولا «مستقبل» له الا اذا ساير وساوم. ففي المجتمع العربي لا «رأي عام» يلجأ اليه اذا قرر ان يتمسك بموقفه وان يقول كلمته صريحة ومن دون خوف.

وهو اذا رفض المساومة، فليس امامه الا الصمت (ان يقبل بالنفي الفكري) او الثورة (ان يلجأ الى العنف).

وبما ان معظم المثقفين لا يقدرون على العنف، وبما انهم يريدون التمتع بالحياة لا التضحية بها، فهم غالبا يختارون طريق المساومة والمسايرة ويرفضون طريق العنف والثورة.

النزعة التبريرية

من هنا يشعر المثقف في مجتمعنا بانه في آخر الامر ضعيف لا حول له ولا قوة. وضعفه ذاتي بمقدار ما هو خارجي. فهو، على رغم احتقاره المال واصحاب المراكز، يشعر بالمهابة والخوف تجاه الاغنياء وذوي السلطان، ويحاول ان يكسب رضاهم وان يصادقهم. واذا كان على درجة عالية من الوعي، فان تعايشه وتودده لذوي السلطة يخلقان في نفسه تناقضا لا يجد له حلا الا بالتراجع عن المواقع المبدئية والاخذ بالتبريرات اللفظية. وهو بذلك يشارك في عملية الخصي الفكري الذي يريد النظام القائم فرضه عليه.

يريد المثقف امرين متناقضين: حرية العمل والمستقبل المؤمن — فهو يريد ان يعيش مبدأه، وفي الوقت ذاته ان يؤمن مستقبله. ومعظم

المثقفين يقضون على هذا التناقض باختيار طريق المستقبل المؤمن. اما المبدأ فيصبح هدف قوى المثقف التبريرية.

ان القدرة التبريرية التي يتمتع بها المثقف، تساعده على حجب حقيقة واقعه وتغطية دوافع سلوكه، وبالتالي تنقذه من احتقار ذاته وتمكنه من عيش تناقضه بلا شعور بالذنب او تأنيب الضمير.

من هنا انبثقت الظاهرة المميزة لدى العديد من المثقفين، وهي ظاهرة التمويه. ان التمويه القائم على قدرة المثقف على ان يبرر نفسه، امام نفسه وامام الآخرين، تتيح له قول الشيء وفعل نقيضه من دون الشعور بالتضارب او التناقض بين نمط قوله ونمط عمله، ويصبح سلوكه اللفظي بديلا عن سلوكه الفعلي. ان هذه القدرة التبريرية تقدم الدرع الواقية التي يحمي المثقف بها نفسه من النقد والنقد الذاتي، وتمكنه من عيش التناقض في حياته من دون كثير الم او قلق.

النزعة الفوضوية

والحق ان مشكلة الحرية بالنسبة الى المثقف الواعي، مشكلة صعبة وشائكة. فاذا عادته السلطة كان عداؤها قاسيا مميتا. فالقانون الذي يحمي الحريات ويؤمن حق القول والمعتقد، اذا وجد، كان حبرا على ورق. فالفرد، في آخر الأمر، فريسة النظام القائم ورهن ارادة السلطة المهيمنة فيه.

لكن المثقف، اذا لم يتعد الحدود المفروضة، يتمتع بحرية واسعة، فهو عندما يكتب او يتكلم لا يجد من يحاسبه، فالمقاييس الفكرية في مجتمعنا معدومة والنقد المسؤول لا قائمة له. وفي حين ان المجتمع تنقصه سلطة القانون، فهو ايضا يفتقر الى سلطة العقل

والعلم. من هنا كانت الفوضى في الفكر والهزال في انتاج المثقفين.

ان الجو الذي يعيشه المثقف في مجتمعنا، جو تنعدم فيه المسؤولية وتغلب فيه المقاييس الكمية على المقاييس النوعية. فاذا انتج المثقف شيئا ما (مقالة، دراسة، محاضرة) كان انتاجه حصيلة «سلق» سريع. فهدفه اتمام الشيء في اسرع وقت ممكن وبأقل جهد ممكن، ومن هنا كان انتاج مثقفينا في اكثر الحقول نتاجا مبتسرا سطحيا لا يعبر عن قدرتهم الحقيقية. فهذه القدرة تحتاج الى الجد والتعب والتمسك بالمقاييس العليا كي تعبر تعبيرا صادقا عن نفسها.

والجمهور الذي يجابهه المثقف جمهور نصف امي. انه يبتلع كل ما يقدم اليه من دون تردد او تساؤل. والنخبة المثقفة القادرة على النقد والتقييم، منصرفة الى شؤونها، لا يهمها الا ما يمس مصالحها مباشرة، فالمثقف ينتظر من اصدقائه الاطراء والمديح ومن اعدائه الذم والقدح. وبهذا، فانه لا يشعر بمسؤولية ثابتة، ولا يخضع لمقاييس موضوعية ملزمة. والعكس هو الواقع، فهو يشعر بانه حر طليق من اي التزام، وان كل الامور سواء. وليس من المستغرب والحالة هذه ان تنخفض نوعية انتاج مثقفينا الى درجة الاسفاف، مما يفرض علينا سلطة الفكر الاجنبي (الغربي) الذي يبقى المحك الأخير للقيم التي نعجز عن تحقيقها.

ان وضع المثقف بالنسبة الى مواهبه، كوضع مجتمعنا بالنسبة الى موارده: يهدرها، ولا يستثمر منها الا الجزء الصغير.

مهمة المثقفين

ان المجتمع العربي مجتمع شاب، فهو من اصغر مجتمعات

العالم. فستون في المئة من سكانه لا يزالون تحت سن العشرين، ومنذ الحرب العالمية الثانية، ارتفع عدد المدارس والطلاب ارتفاعا كبيرا وزادت نسبة المتعلمين وحملة الشهادات الابتدائية والجامعية بشكل لم يشهده اي بلد من البلاد النامية. ومن المقدر ان يستمر هذا النمو بصورة متزايدة خلال العقد او العقدين الآتيين.

وكلما ارتفع عدد المتعلمين ارتفع عدد المثقفين وكبر حجم جمهورهم وقويت فاعليتهم في مختلف المجالات. ان اتساع قاعدة المثقفين يضفي عليهم قوة ذاتية لم يعرفها الجيلان السابقان من المثقفين. ويضفي عليهم ايضا قدرة متزايدة على التأثير في حياة المجتمع.

ويمكننا القول ان الفئة الملتزمة من مثقفي الجيل الصاعد ستكون اكبر عددا واوسع اثرا منها في الجيل الذي مضى (او اوشك على ان يمضي). ويمكن التكهن ايضا بأن الفئات الثلاث الأخرى — وهي الكتاب والاساتذة والمهنيون — ستكون اكثر استقلالا وبالتالي اكثر تأثيرا في حياة المجتمع من الفئات المماثلة في مثقفي الجيل الماضي. وفي حين ان مهمة الفئة الملتزمة، المنخرطة في الممارسة والعمل المنظم، تشكل مهمة صراعية (بمعنى ان ممارستها الثورية تضعها آليا خارج الوضع القائم وضده، وتدفعها نحو اهداف تتجاوز الاهداف المهيمنة فيه)، فان مهمة الفئات الأخرى من المثقفين مهمة تعاونية (بمعنى أن ممارستها ولو كانت نقدية تقوم على العمل من ضمن الوضع القائم على رغم «ثورية» البعض منها).

المثقفون «الايجابيون»

ان الكتاب والادباء والمعلمين والاساتذة والمهنيين

والاخصائيين، كلهم يمارسون عملهم من ضمن النظام الاجتماعي لا ضده، وحين يعملون على تغييره يعملون على تطويره من الداخل (عن طريق تطوير قاعدته المادية وتنمية مؤسساته وتغيير الوعي فيه، الخ) لا على اسقاطه عن طريق الثورة والعنف. واذا حددنا مهمة الفئات «الايجابية» من مثقفي الجيل الصاعد على هذا النحو، فيمكن تلخيصها كما يأتي:

الفئة الاولى (الكتاب والادباء): النقد والتقييم والتوعية العامة، بواسطة الكتابة في الجرائد والمجلات والمؤلفات.

الفئة الثانية (المعلمون والاساتذة): التعليم والتثقيف والبحث العلمي، بواسطة التدريس في المدارس والجامعات والمعاهد العلمية.

الفئة الثالثة (المهنيون والاخصائيون): التخطيط والتنظيم والتنفيذ، بواسطة العمل في الجامعات والمؤسسات الخاصة والمعاهد العلمية.

يقف المجتمع العربي اليوم، موضوعيا، على عتبة انتقال جذري من حضارة القرن السادس عشر او السابع عشر الى حضارة القرن العشرين. لكنه، في الوقت ذاته، عاجز، ذاتيا، عن تحقيق هذا الانتقال. فالتغيير الاجتماعي، الذي أصبح في متناول يدنا بسبب الطاقات المادية الهائلة التي اصبحت في حيازتنا، لا يشكل حتمية تاريخية. وتحقيق هذا التغيير يتطلب ارادة ذاتية قادرة على استيعاب اللحظة التاريخية والعمل بمقتضاها.

من هنا، كان دور مثقفي الجيل الجديد حاسما، اذ انهم يمثلون القوة الذاتية الوحيدة في المجتمع العربي المعاصر التي تملك الوعي والقدرة على تحقيق هذه المهمة التاريخية. انهم، في قدراتهم العقلية

والتكنية والعلمية، يمثلون قوة المجتمع وطاقتة الانسانية، وفي وعيهم يعبرون عن ارادة هذا المجتمع واهدافه. ان دورهم دور لا يقوى الخبراء او الاخصائيون الاجانب على تأديته. واذا اعطي الاجنبي هذا الدور فمعنى ذلك اننا فقدنا زمام التاريخ ورضخنا لارادة خارجة عن ارادتنا.

ومن جهة أخرى، يقف مثقفو الجيل الصاعد امام اختيار فاصل: اما الاستسلام (كما فعلت اكثرية مثقفي الجيل السابق) للقوى والمؤسسات المهيمنة «فامنوا مستقبلهم» وقبلوا بدور المستخدم والمستلزم، واما لعب الدور التاريخي، ورفض رشوة «المستقبل المؤمن» ومذلة الاستخدام والاستزلام، والوقوف الى جانب جماهير الشعب التي يتوقف عليها، في السياق الطويل، مصير المجتمع ومستقبله.

كتاب الدكتور **هشام شرابي**، المثقف الفلسطيني البارز، واستاذ التاريخ الحضاري والعلوم السياسية بجامعة «جورجتاون» بواشنطن، هو في الواقع مجموعة محاضرات القاها على طلابه خلال العام الجامعي الماضي، ولقيت صداها انذاك من الترحيب والنقد في وقت واحد، وخاصة بعد نشرها منفردة في الصحافة اللبنانية. اضاف اليها شرابي مقدمة نقدية، يضع فيها امام قرائه صورة تحليلية لتطوره الفكري ثقافة والتزاما.

وفي هذا الكتاب يضعك **المؤلف** منذ صفحاته الاولى، امام رهبة الواقع، فيجعلك تشعركم هي النظرة النقدية لمجتمعك ملحة، وكم هي ضرورية لفعل التغيير المنشود. وتستعرض خلال ١٤٠ صفحة مجموعة من الدراسات الاكاديمية والتحليلية بعضها يحمل طابع النظريات الاجتماعية والانتروبولوجية، وبعضها الاخر طابع المواقف الذاتية الخاصة.

يتوقف **شرابي** بشكل خاص عند مظاهر تكون الفرد داخل بنية المجتمع وأثر هذه البنية عليه، مرتكزا على نظرية التحليل النفسي، ومطبقا نتائجها على سلبيات التربية في العائلة العربية التي تخلف اولادا اتكاليين، عاجزين، يفتقرون الى الحد الادنى من حرية المبادرة الذاتية.

لكن وعي **الكاتب** لاثر التمويه «الذي يرجع الى السنوات الاولى من حياتنا والذي يشكل حاجزا من الصعب تجاوزه»، لا يصل به الى حد رفض العملية بشكل حاسم ومطلق والوقوف في وجهها. ونحن، اذ نجد **الدكتور شرابي** يخضع مع هزيمة عام ١٩٦٧ لازمة جعلت هذا العام «بداية مرحلة جديدة في حياتي»، نفاجأ به يعود مع مطلع سنة ١٩٧٢ الى فترة «ركود» كان سهلا عليه خلالها، كما يقول، ان يصمت ويعود الى ممارسة مهنة التدريس ومتابعة الحياة السابقة.

«مجلة الحوادث ـ بيروت»